المنهج النبوي في
مواجهة الأزمات الاجتماعية
ودلالته في الواقع المعاصر

دكتور
خالد محمد حمدي صميدة
مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، الذي فتح الله به أعيناً عُمياً، وآذانا صُماً، وقلوباً غُلفاً ، وهدى الناس من الضلالة، ونجّاهم من الجهالة ، وبصّرهم من العمى ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهداهم بإذن ربه إلى صراط مستقيم، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومَن اقتفى أثره واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فقد كثرت مشاكل الأمة وكثر الحديث عن الأزمات والمصائب التي تحل بالمسلمين من فترة لأخرى، وإن من المهم في هذا الشأن النظر إلى كيفية استثمار الأزمة ورفع اليأس والجزع عن أمة الإسلام، ومحاولة التعرف على الجوانب الإيجابية التي تعود بالخير على المجتمع والأمة عامة.

ومن رأى أحوال النبي ﷺ ومنهجه في مواجهة ما قد حل بالمجتمع الإسلامي الأول من أزمات ومحن، وكيفية تحويله ﷺ المحنة إلى منحة، وتحويل الموقف السلبي إلى إيجابي لرأى عجباً...

فالنبيﷺ واجه في حياته من أنواع الفتن والأزمات الشيء العظيم، وقد تنوعت تلك الأزمات من أزمات طويلة الأمد كما هو حاله ﷺ في مكة، فقد كان الصحابة- رضي الله عنهم- يخفون إسلامهم، ولا يستطيع أحد منهم إظهار دينه، مع أن ما يواجهونه من تعذيب وتنكيل وسخرية ونيل من القدوة والمربيﷺ أمام أصحابه لا يقدر أحد على رده، ولهذا كانت الفترة المكية بعمومها فترة أزمات، وكانت هذه الأزمات تمحيصاً للمؤمنين وتهيئةً لهم لمرحلة أخرى تحتاج إلى أفراد قد أعدو إعداداً متميزاً، ثم تلا ذلك انفراج هذه الأزمة وانتقال الرسولﷺ إلى الدرع الحصين (المدينة) ولم يستمر هذا الانفراج، فكانت في العهد المدني أزمات خاصة بأزمنة مخصوصة.

وتوالت الأزمات وتنوعت ما بين اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وعسكرية،

وغير ذلك، ومع كثرة تلك الأزمات في حياة النبيﷺ إلا أن الصف المؤمن يزيد تماسكاً وقوةً ويزيد أفراده ثباتاً وثقةً في منهجهم وفي قيادتهم، بفضل ما منّ الله على رسوله ﷺ من منهج كان الأمثل في مواجهة كل أزمة تواجه هذه الأمة مهما كان قدر هذه الأزمة.

إن دراسة كيفية استطاعة النبي ﷺ مواجهة الأزمات التي مرت به تبين أن نظام إدارة الأزمات على الأساس العلمي في المفاهيم الحديثة واقع سبق أن عرفته الدولة الإسلامية العظمى منذ بداية تأسيسها على يد النبي ﷺ وبالبحث العلمي الدقيق في سيرته العطرة، سواء في حياته الاجتماعية الأولى أو حياته السياسية والإدارية والحربية، سيجد المرء ما لا يعد ولا يحصى من أصول منهجية لكيفية مواجهة الأزمات.

وهذا المنهج الذي سلكه ﷺ في مواجهة الأزمات له دلالته في الواقع المعاصر مما يجعل من الواجب على المسلمين في هذا العصر تفعيل هذه القضية في الأمة والتذكير بها في كل حين، لكي يسلم المجتمع الإسلامي من هذه الأزمات وما يحصل فيها.

لذلك أردت- من خلال كتابة هذه السطور- الإسهام في بيان المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ في إعداد جيل كان خير القرون وأفضلها، وواجه من خلاله جميع الأزمات بثبات وقوة، ووجه أصحابه خلال ما يتعرضون له من أزمات توجيهاً تربوياً، حافظ فيه على نقاء الصف المسلم وتفاديه لآثار الأزمات، وإظهار أن هذا المنهج في مواجهة الأزمات مبني على توجيه رباني مما يضفي على تعامله ﷺ مع هذه الأزمات طابع العصمة، وأردت بهذا البحث أن أبين هذا الجانب الاجتماعي في العهد النبوي، والأزمات التي تعرض لها هذا الجانب، وذلك من خلال عرض المواقف التي تحمل معنى الأزمة في حياة النبي ﷺ الاجتماعية، وإيضاح منهجه في مواجهتها، وكيفية تطبيق ذلك في الواقع المعاصر.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي: الذي يصف ويسجل ما مضى من وقائع وأحداث الماضي ولا يقف عند مجرد الوصف، وإنما يهتم بدراسة الوقائع

والأحداث ويحللها ويفسرها ويحدد الظروف والعلاقات التي توجد بين تلك الوقائع، وقد جاء هذا البحث بعنوان (المنهج النبوي في مواجهة الأزمات الاجتماعية ودلالته في الواقع المعاصر)

وتأتي أهمية هذا الموضوع من خصائص العصر الذي نعيش فيه فهو عصر أزمات وتحديات، نحتاج فيها إلى منهج واضح في التعامل معها، ولابد للقادة من الجد والاستعداد لتوجيه الأمة لما يبقيها قوية شامخة في ظل هذا العالم المضطرب، فالمجتمع المسلم يواجه في هذا العصر العديد من التحديات والمشكلات التي تؤثر على عقيدته، وعلى مبادئه وقيمه، وعلى أمنه وطمأنينته، فأعداء الأمة يقومون بدور كبير للإيحاء للمسلمين بأن قيمهم ومبادءهم وتشريعاتهم لم تعد صالحة في هذا العصر، وأنه ليس من مقدور المسلمين وضعها موضع التنفيذ العملي.

واقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فكانت كما سبق.

التمهيد: مفهوم الأزمات.

المبحث الأول: الواقع الاجتماعي للعرب قبل الإسلام.

المبحث الثاني: ملامح المجتمع في العهد النبوي.

المبحث الثالث: صناعة الشخصية القيادية لمواجهة الأزمات.

المبحث الرابع: نماذج للأزمات الاجتماعية في العهد النبوي والمنهج النبوي في مواجهتها.

الخاتمة: وفيها ملخص لأهم ما جاء في البحث من نتائج.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور / خالد محمد حمدي صعيدة
مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين بالمنوفية

تمهيد

مفهوم الأزمات

الأزمة في اللغة: جاء في (معجم مقاييس اللغة): " وأما الهمزة والزاي والميم فأصلٌ واحد، وهو الضِّيق وتَداني الشيء من الشيء بشدّةٍ والتِفَافٍ، والأزْم شدّة العَضّ... والسّنة أزمَةٌ للشِّدَّة التي فيها " (١)

وفي (مختار الصحاح): " الأزْمةُ الشدة والقحط، وأزَم عن الشيء أمسك عنه... والمَأْزِمُ المضيق وكل طريق ضيق بين جبلين مأزم وموضع الحرب أيضا مأزم"(٢)

وفي المعجم الوسيط: " (تأزم) أصابته أزمة...(الأزمة) الضيق والشدة يقال أزمة مالية وأزمة سياسية وأزمة مرضية"(٣)

يفهم من هذا أن لفظ الأزمة يطلق على العديد من المواقف الصعبة المختلفة التي تتصف بالضيق والشدة، ولها نواحي متعددة سواء أكانت سياسية أو إدارية أو اجتماعية وغيرها.

ويمكن أن تُعرّف الأزمة بمعناها العام بأنها: النقطة الحرجة واللحظة الحاسمة التي يتحدد عندها مصير تطور ما، إما إلى الأفضل وإما إلى الأسوأ، الحياة أو الموت، الحرب أو السلم لإيجاد حل لمشكلة ما أو انفراجها"(٤)

وأقصد بالأزمات هنا تلك المواقف الصعبة والحرجة التي تواجه المجتمع المسلم وتأخذ طابع العموم، وتقتضي اتخاذ موقف حاسم لتوجيه أفراد المجتمع توجهاً صحيحاً، يسبقه إعداد يجنبهم الوقوع في تبعات هذه الأزمة.

(١) معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا جـ ١ صـ ٩٧ طـ دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي صـ ١٥ مادة (أزم) طـ مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥ - ١٩٩٥.

(٣) المعجم الوسيط - إبراهيم مصطفى وآخرون جـ ١ صـ ١٦ طـ دار الدعوة.

(٤) إدارة الأزمات التعليمية - أحمد بن إبراهيم صـ ٢٤ طـ دار الفكر العربي ١٤٢٢ه ٢٠٠٢م.

وهذا التوجيه لأفراد المجتمع يكون من قائد لحل تلك الأزمة، وهذا القائد يسير في قيادته على منهج واضح من شأنه الخروج بالمجتمع من تلك الأزمات وتجنب تكرار حدوثها فيما بعد، وهذه العملية تسمى في العصر الحديث بإدارة الأزمات.

" وهي إدارة خاصة من شأنها إنتاج استجابة للمواقف المتأزمة من خلال مجموعة من أصحاب المهارات المدربين تدريباً جيداً، والذين يستخدمون مهاراتهم في الخروج من تلك المواقف ومواجهتها بالإضافة إلى إجراءات خاصة من أجل تقليل الخسائر إلى الحد الأدنى "(١)

ومن خلال التعاريف اللغوية السابقة يمكن تحديد المراد بمواجهة الأزمات بأنه: " السعي بالإمكانات البشرية والمادية المتوفرة إلى إدارة الموقف، وذلك عن طريق: وقف التدهور والخسائر، تأمين وحماية العناصر الأخرى المكونة للكيان الأزموي، السيطرة على حركة الأزمة والقضاء عليها، الاستفادة من الموقف الناتج عن الأزمة في الإصلاح والتطوير، دراسة الأسباب والعوامل التي أدت للأزمة لاتخاذ إجراءات الوقاية لمنع تكرارها أو حدوث أزمات مشابهة لها فيما بعد" (٢)

وقد استخدمت العربية عدة ألفاظ في الأزمة تشترك في المعنى العام ولكن كل لفظ منها له معنى خاص به كالقحط والمخمصة والجائحة والفاقة فلكل منها معنى خاص، ولكنها جميعا تدل على الضيق والحرج، فالأزمة حدث يسبب تغيراً في الحياة العادية للمجتمع، فهي بمثابة خلل يؤثر على نظام الحياة، وهي لحظة حرجة وحاسمة تتعلق بمصير المجتمع.

خصائص الأزمة :

قبل بيان المنهج في مواجهة الأزمات لا بد من بيان خصائص هذه الأزمة، لأن

(١) المرجع السابق صـ ١٥ بتصرف.

(٢) المدخل الإبداعي لإدارة الأزمات - فهيد بن عايض الشمري صـ ١٨ طـ ١٤٢٣ هـ، اتخاذ القرارات في ظروف الأزمات - خالد بن عبدالله آل سعود صـ ٧٢ طـ ١٤٢٧ ه ٢٠٠٦ م.

معرفة هذه الخصائص يعطي تصوراً واضحاً عن طريقة التعامل مع تلك الأزمات "

ومن هذه الخصائص ما يلي:

أولاً- تعتبر الأزمة نقطة تحول أساسية في أحداث متتابعة ومتصارعة، فإما أن يكون التحول إلى شيء إيجابي بالنسبة للفرد أو المجتمع وإما إلى شيء سلبي.

ثانياً – تحتاج الأزمة إلى التدخل السريع الصائب، وهذا يتطلب قيادة رشيدة مؤهلة تكون حاضرة الذهن عالمة بما يصلح للخروج من الأزمة.

ثالثاً- سيادة جانب الخوف والذعر لحد الرعب من هول ما قد تتحرك الأزمة إليه.

رابعاً- الأزمة تكشف عن تراكم مجموعة من التأثيرات السابقة التي اجتمعت عبر فترة من الزمن، فالمستوى التربوي للأفراد والقيادات يظهر واضحًا من خلال الأزمة.

خامساً- إمكانية الاستفادة من الموقف في الأزمة واكتساب خبرات جديدة وتكوين تصور واضح للمستقبل.

سادساً- الأزمة تكشف مواطن الخلل والضعف في المناهج والأساليب وأيضا في الأفراد. (١)

وإذا كانت الأزمات متعددة ومتنوعة اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو سياسية وغير ذلك، فسوف أركز في هذا البحث على تلك الأزمات المتعلقة بالمجتمع المسلم على عهد النبي ﷺ لتوضيح كيف كان هذا المجتمع قبل النبوة، وماذا كان وضعه بعدها، وما أهم الأزمات الاجتماعية التي تعرض لها، وأهم الفئات التي كانت تفتعل الأزمات في المجتمع، وكيف واجهها ﷺ بمنهج واضح له دلالته في العصر الحاضر ولابد أن يطبق ويحتذى.

(١) المدخل الإبداعي لإدارة الأزمات – فهيد بن عايض الشمري صـ ١٠.

المبحث الأول

الواقع الاجتماعي للعرب قبل الإسلام

أولاً: مكانة المسألة الاجتماعية في الحياة الإنسانية.

لا يخفى أن الإنسان مدني بطبعه، لابد له من الاجتماع الذي به يحفظ وجوده ويبقي نوعه " إذ لا يمكنه تحصيل أسباب معاشه، وإعداد ما يدفع به عن نفسه، دون معين من أبناء جنسه، فيضطر إلى اجتماع يتكفل له بذلك على أيسر مرام، لتتم حكمة إيجاده وغاية ما خلق له " (١)

وبالنظرة العامة إلى البشرية قبل الإسلام يتضح أنها عاشت قبل الإسلام أوضاعاً مزرية في ما يتصل بالنظام الاجتماعي، فادعى البعض أنه من نسل الآلهة، والبعض الآخر يرى أن الدماء التي تجري في عروقه ليست من نوع دماء العامة، وذهبت ملل ونحل أخرى إلى تقسيم الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله فهي مقدسة، وخلق بعضها من قدميه فهي منبوذة " (٢)

وجاءت الدعوة الإسلامية لإصلاح الأوضاع الإنسانية، وتمكين كل فرد أو مجتمع أو أمة، تنضبط بها فهما وممارسة من تحقيق مستوى راق للاستخلاف كما قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)(٣) هذه الدعوة المتميزة بالكمال والشمول أعطت المسألة الاجتماعية أهمية كبرى لتحقيق الهدف من الوجود الإنساني، وهو إنجاز مهمة الاستخلاف في الأرض

(١) بدائع السلك في طبائع الملك – ابن الأزرق صـ ٣٠ طـ دار الحرية للطباعة والنشر بغداد١٣٩٧ ه ١٩٧٧م.

(٢) العدالة الاجتماعية – سيد قطب – صـ ٤٤ طـ دار الشروق.

(٣) سورة النور الآية ٥٥.

بالعبودية التامة لله تعالى.

ثانياً: مظاهر الإيجاب والسلب في الواقع العربي قبل الإسلام.

قبل الكلام عن الأزمات الاجتماعية التي وقعت في عهد النبوة وبيان الطريقة المثلى التي أدار بها النبيﷺ تلك الأزمات وواجهها، لابد من بيان الواقع الاجتماعي لهذا المجتمع العربي، لتبدو الصورة واضحة لما كان عليه هذا المجتمع وما آل إليه، وليظهر واضحاً هذا التغير الذي أحدثه المنهج النبوي ﷺ في هذا المجتمع، ثم من ناحية أخرى بيان أن حدوث تلك الأزمات إنما هو في بعض الأحيان بسبب العودة لتلك العادات الاجتماعية البغيضة التي كانت سائدة في المجتمع قبل بعثة النبي ﷺ أو بسبب إثارة تلك العادات من قبل بعض أعداء الإسلام لإذكائها في المجتمع لزعزعته بعد استقراره في أحيان أخرى، ثم إن الكلام عن حياة العرب الاجتماعية قبل الإسلام يُمكّن الباحث من رصد المظاهر الاجتماعية لذلك المجتمع.

المظاهر الإيجابية في المجتمع العربي قبل الإسلام.

لا يمكن أن تكون صورة المجتمع العربي قبل الإسلام مجردة من كل ميزة أو خالية من كل الصفات المحمودة، وفي الوقت نفسه لم يبلغ المجتمع العربي درجة عالية من المثالية والرقي، لذا كان لزاماً بيان بعض الصفات التي سادت ذلك المجتمع، وهي مظاهر تتعلق بالقوة والإيجابية، فعقول العرب كانت تمتاز بالذكاء والفطنة، والقدرة على الحفظ؛ فلم تدخلها لا فلسفات اليونان، ولا أساطير الفرس والرومان، ولا خرافات الشعوب الهندية "فكأن عقولهم وقلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود؛ وهي دعوة الإسلام الخالدة " (١)

وكان الكرم والسخاء خلقا متأصلاً في حياتهم، فإذا نزل في دار أحدهم ضيفٌ، ولا يملك إلا فرسه أو ناقته، إلا بادر إلى نحرها؛ إكراما لضيفه، وكانت هذه الخصلة

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – د/ علي محمد محمد الصلابي صـ ٤٠ طـ السابعة دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

تدفعهم إلى تحمل الديات الهائلة، حقنا للدماء، ورغبة في الفخر" (١)

وفرضت طبيعتهم القبلية، الشجاعة والمروءة، والنجدة على نظامهم الاجتماعي، حتى يعيشوا ويقاوموا عوامل الإخضاع والإنتهاب، فكان الواحد منهم إذا شم رائحة الذل والهوان، فضل السيف والسنان، وآثر الحرب العوان، وقدم نفسه قربانا لعزته وكرامته" (٢)

كما كانوا أهل فروسية، ورباطة جأش، وقوة بأس، وهذا ما نلحظه في أشعارهم وأمثالهم وقصصهم، وتجلت لنا أروع مظاهره حينما صاروا حماة للإسلام " (٣)

وكانوا يحبون الصدق والصراحة والوضوح، ويأنفون الكذب ويعيبونه، لذلك كانت شهادتهم باللسان كافية للدخول في الإسلام، والدليل قصة أبي سفيان لما سأله هرقل عن الرسول ﷺ وكانت العداوة قائمة فقال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه " (٤)

ومنها الوفاء بالعهد ورعاية الجوار، فكانت الكلمة التي تخرج من أحدهم بمثابة ميثاق ملزم لمن قالها مهما كلفته من ثمن في شرفهم ورأس مالهم، حتى لو كان الذي يدخل في جوارهم وعهدهم مخالفاً لهم، كما حدث لرسول الله ﷺ عندما رجع من الطائف ودخوله في جوار المطعم بن عدي " فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهي إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى

(١) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة – الطيب برغوث صـ١٧٤ طـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(٢) الرحيق المختوم – المباركفوري صـ ٥٢ طـ الثانية دار السلام للنشر والتوزيع ١٤٢٩ه ـ٢٠٠٨م

(٣) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة – الطيب برغوث صـ١٧٤.

(٤) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – علي محمد محمد الصلابي صـ ٣٤ والحديث أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٧

على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم، وانتهي رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته، وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع مسلم؟ قال: بل مجير، قال: قد أجرنا من أجرت "[1]

واكتسبوا من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة قليلة الزرع والماء قدرة عجيبة على تحمل المكاره، والصبر في الشدائد، فلم يتأثروا لا بالحر ولا بالبرد، ولا بالجوع ولا بالظمأ، ولا بوعورة الطريق ولا ببعد المسافة، فلما دخلوا الإسلام ضربوا أروع الأمثلة في مواجهة التحديات "[2]

" وعلمتهم قساوة الطبيعة كيف يخشوشنوا، ويوطنوا أنفسهم فكانوا يعيبون على الرجل الأكول، وكانت القناعة خلقهم، والرضا باليسير ديدنهم " [3]

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي فهو أفضل المجتمعات، ولعل هذه الأخلاق النبيلة كانت ذات منافع عامة على المجتمع والأمة، كما كانت سبباً في اصطفاء أهلها لحمل الرسالة، وتبليغ الدعوة وقيادة الأمة إلى فلاح الدنيا والآخرة " لهذا اختار الله رسوله ﷺ للرسالة واختار له هذا المجتمع العربي وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم ومعارفهم، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة

(١) الرحيق المختوم – صفي الرحمن المباركفوري صـ ١٣٧.

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – علي محمد محمد الصلابي صـ ٤٤، ٤٥.

(٣) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة – الطيب برغوث صـ ١٧٥.

الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح " [1]

المظاهر السلبية في المجتمع العربي قبل الإسلام.

تلك المظاهر السلبية لا يمكن حصرها هنا لكثرتها ويكفي الإشارة إلى بعضها، وهي مظاهر يسودها الاختلال والضعف، وذلك لأخذ صورة مجملة لما آلت إليه الحياة الاجتماعية لعرب ما قبل الإسلام، والتي شكلت التحدي الأكبر أمام مسؤولية الدعوة في التغيير والإصلاح الاجتماعي والذي تولاه النبي ﷺ بموجب رسالة الإسلام التي كلفه بها ربه عز وجل.

وقد وصف الأستاذ عباس العقاد عالم ما قبل الإسلام بقوله: " كان عالماً متداعيا قد شارف النهاية.... خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام...أي فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر "[2]

وباستقراء أوضاع المجتمعات البشرية قبل بزوغ فجر الدعوة الإسلامية يظهر الانحطاط المريع الذي تردت فيه الحضارة الإنسانية، ولا أريد هنا الاستطراد في بيان تلك الأوضاع بمجالاتها المختلفة، إنما أركز الكلام عن الوضع الاجتماعي السائد عند العرب قبل الإسلام إذ هو المتصل بموضوع البحث.

فالعرب ببدوهم وحضرهم، كانت القبلية هي المحور التي ينظم وجودهم وحركتهم وعلاقاتهم، حتى على المستوى العقدي نلحظ ذلك فقد كان لكل قبيلة صنم خاص بها تتعصب له، وتدافع عنه وتحميه وتفخر به، وكان لهم شعار يرفعونه دائما يلخص مجمل حياتهم الاجتماعية وهو (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ويترجم هذا الشعار قول شاعرهم: (ما أنا إلا من غَزِيّة إن غَوَتْ غويت، وإن ترشد غزية أرشد) [3]

(١) نظرات في السيرة – الإمام حسن البنا صـ ١٤ طـ الأولى مكتبة الاعتصام – القاهرة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م..

(٢) عبقرية محمد – عباس العقاد صـ ١٠ طـ المكتبة العصرية.

(٣) هذا البيت لدريد بن الصِّمَّة " الأصمعيات – الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك =

يقول صاحب كتاب الرحيق المختوم موضحا مدى هذه العصبية: " أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسيرون على المثل السائر: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) على المعنى الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الإسلام؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضى إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد "(١)

فالتعصب للقبيلة هو الذي يرسم للفرد حياته، وبدا هذا واضحا في واقعهم الاجتماعي، حيث توزيع المهام الروحية والاجتماعية على القبائل بما يوضح مدى الاهتمام بالبعد القبلي في النشاط الاجتماعي كأساس في بناء نظامهم الاجتماعي قبل الإسلام " فقد كان الأيسار: أي تولية قداح الأصنام للاستقسام، في بني جُمَح، وكان تحجير الأموال: أي تنظيم القربات والنذور التي كانت تهدى إلى الأصنام، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات في بني سهم، وكانت الرفادة والعناية بالحجيج في بني هاشم، وكانت الشورى في بني أسد، والأشناق: أي تنظيم الديات والغرامات، في بني تَيْم، والقبة: أي تنظيم المعسكر، وكذلك قيادة الخيل في بني مخزوم، والسفارة كانت في بني عدي "(٢)

ومن تلك المظاهر أنه لم تكن للمرأة قيمة تذكر في المجتمع الجاهلي، فبعض القبائل

= صـ ١١٢ط دار المعارف. وهو أخو جشم أو هوازن أحد الفرسان المعمرين في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم وقتل على دين الجاهلية يوم حنين " مروج الذهب - أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي جـ ٢ صـ ٤٤٦ طـ دار الأندلس - بيروت ١٩٦٥.

(١) الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري صـ ٤٩، ٥٠.

(٢) المرجع السابق صـ ٣٦

تعتبر وجودها نذير شؤم، وميلادها يسبب اختياراً صعباً لأبيها بين وأدها أو تركها حية، وأكد القرآن هذه الحال في قوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (١)

كما استنكر الله عليهم فعلتهم، ووأدهم الشنيع للبنت، في قوله تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)(٢)

وكانت المرأة تورث كما يورث المتاع، وللابن الأكبر لزوجها من غيرها الحق بأن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يعضلها عن النكاح، حتى حرم الإسلام ذلك في قوله تعالى: (وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً) (٣)

وكان حرمان النساء والبنات والصبيان من الميراث عرفاً سائداً، حتى أبطله الإسلام في قوله تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)(٤)

وكانت الفتيات يكرهن على البغاء؛ بغرض التكسب، حتى نهى الله تعالى عن هذا في قوله: (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(٥)

" وكانت المرأة تكره على الاستبضاع، فيرغمها زوجها على مسافحة غيره، ممن يشتهر عندهم بالشجاعة والشهامة، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا شاء، وإنما

(١) سورة النحل الآية ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة التكوير الآية ٨، ٩.

(٣) سورة النساء الآية ٢٢.

(٤) سورة النساء الآية ٧.

(٥) سورة النور من الآية ٣٣.

يفعل ذلك رغبة في الولد " [1]

" وامتهنت المرأة في الجاهلية بأنكحة فاسدة مختلفة، كنكاح البغايا؛ فيقصد المرأة من لا أخلاق لهم، ونكاح الخدن؛ وأصحابه يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لؤم، ونكاح المتعة؛ وهو نكاح مؤقت، ونكاح البدل؛ فيقول الرجل للآخر أنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك، ونكاح الشغار؛ القائم على التبادل والخالي من الصداق " [2]

وكل هذه الأنكحة هدمها الإسلام ولم يبق منها سوى نكاح الناس اليوم، وهذا الوضع السائد في أمر النكاح بينته السيدة عائشة – رضي الله عنها – فيما أخرجه البخاري في صحيحه: أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لَا

(١) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة – الطيب برغوث صـ ١٧٨.

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – علي محمد محمد الصلابي صـ ٣٦، ٣٧.

يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ" [1]

ومن مظالم المرأة في الجاهلية؛ أن الرجل له أن يجمع بين الأختين حتى حرم الله ذلك في قوله تعال: (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ النساء)[2]

وللرجل في الجاهلية أن يجمع في عصمته من الزوجات بلا تقييد ولا تحديد، وله أن يطلق ويرجع متى شاء وكيف يشاء، دون مراعاة لحقوقهن في العشرة والنفقة والعدل، حتى جاء الإسلام ووضع لهذه المظالم حدوداً وضوابط؛ فقيد أمر الزواج بأربع في قوله تعالى: (فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ)[3] وضبط كذلك أمر الطلاق في قوله تعالى: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [4]

ومن مظاهر الاختلال والضعف في الحياة الاجتماعية ذات الآثار السلبية على سلوك

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب من قال لا نكاح إلا بولي جـ ٥ صـ ١٩٧٠. ومعنى: (أنحاء) أنواع (وليته) من في ولايته (فيصدقها) يجعل لها مهرا معينا (طمثها) حيضها. (فاستبضعي منه) اطلبي منه المباضعة وهي المجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج (يمسها) يجامعها (نجابة الولد) أي ليكون نفيسا في نوعه وكانوا يطلبون ذلك من أشرافهم ورؤسائهم وأكابرهم جهلا منهم وضلالا (الرهط) ما دون العشرة من الرجال (يصيبها) يجامعها (البغايا) جمع بغي وهي الزانية (رايات) جمع= =راية وهي شيء يرفع ليلفت النظر (علما) علامة (القافة) جمع قائف وهو الذي ينظر في الملامح ويلحق الولد بمن يرى أنه والده (فالتاط به) فالتحق به والتصق (هدم) أبطل " فتح الباري – ابن حجر جـ ١٢ صـ ٣٣. يقول الدكتور/ وهبة الزحيلي في تعريف هذه الأنكحة: " فقد كان النكاح في الجاهلية أربعة أنحاء: النكاح المعروف بعقد بعد خطبة، ونكاح الاستبضاع أي طلب الزوجة المباضعة وهو الجماع من رجل آخر بطلب زوجها، ونكاح الرهط دون العشرة، ثم تلحق المرأة الولد بمن أحبت منهم، ونكاح البغايا، ثم إلحاق الولد بواحد من الزناة بالقافة " الفقه الإسلامي وأدلته – د/ وهبة الزحيلي جـ ٩ صـ ٣٦٤ طـ الرابعة دار الفكر دمشق.

(٢) سورة النساء من الآية ٢٣.

(٣) سورة النساء من الآية ٣.

(٤) سورة البقرة من الآية ٢٢٩.

الأفراد والجماعات، انتشار تعاطي الخمر، وقد شاعت في حياتهم، وغدت من مظاهر كرمهم وفخرهم ومحل أشعارهم، ولعل سياسة التدرج التي انتهجها الإسلام في تحريمها تدل على مدى استحكام أمرها في حياتهم، وقوة إدمانهم عليها، وصعوبة التخلص منها.

وغدا القمار أو الميسر من العادات المتأصلة في الواقع الاجتماعي العربي قبل الإسلام إلى حد التفاخر " فكان الرجل يخاطر بماله وأهله، فأيهما ربح صاحبه أخذ ماله وأهله، مما يؤدي هذا التصرف إلى التباغض والتحاسد والتقاتل والانتقام " (١) إلى جانب اتخاذ القِيان وانتشار مجالس اللهو، والحفلات التي يصاحبها الشراب وهتك الأعراض، وكذلك كان استحكام عادة التقاتل لأغراض مختلفة من مظاهر الخلل في حياتهم الاجتماعية، كأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع هذا المجتمع، وقلما يجد الباحث يوما مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال.

وبذلك ساد المجتمع الفساد والظلم، وغمط الناس وبطر الحق، وأكل أموال الناس بالباطل، ولا أبلغ وأصدق تصوير لهذه الجاهلية، والخلل في الأوضاع الاجتماعية وانحدارها من تصوير جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – أمام النجاشي حيث قال: " أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأت الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف... " (٢)

ومما يزيد الوضع خطورة وتعقيداً، تأصيل الروح أو الغريزة القبلية في النفوس، وبناء النظام الاجتماعي كله على أساسها " فكان الفرد يجد نفسه مندفعاً تحت تأثير هذه الغريزة إلى تلبية نداء المساعدة لأي فرد من أفراد القبيلة، دون أن يهتم بمعرفة ما إذا كان الأمر يتطلب ذلك أم لا " (٣)

(١) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة – الطيب برغوث صـ ١٧٩.
(٢) السيرة النبوية– ابن هشام جـ ٢ صـ ١٧٩ طـ الأولى دار الجيل١٤١١هـ.
(٣) محمد رسول الله – محمد الصادق عرجون جـ ١صـ ٥٠ طـ دار القلم.

وهذا من مظاهر طغيان العصبية القبلية بحيث كان الاعتقاد بشرف القبيلة عصب الحياة عندهم، فكان الاحتماء بالقبيلة وحمايتها أمراً في غاية الأهمية بالنسبة لهم، ولعل هذه الروح القبيلة كانت من أقوى الأمور التي كانت سبباً لإثارة الأزمات الاجتماعية بعد الإسلام، فكان لبقايا وآثار غريزة العصبية القبلية السائدة في الجاهلية دور قوي في إثارة الأزمات في العهد النبوي، وواجهها النبي ﷺ بمنهج يظهر واضحاً في هذا البحث.

المبحث الثاني

ملامح المجتمع في العهد النبوي

أولاً: طوائف المجتمع في العهد النبوي.

لكي أبين الأزمات التي تعرض لها المجتمع في العهد النبوي لابد من ذكر الطوائف التي يتكون منها هذا المجتمع الذي تحمل النبي ﷺ عملية بنائه، وسوف يتبين ما لبعض هذه الطوائف من دور في إثارة الأزمات في المجتمع الإسلامي، فقد كان المجتمع الجديد يتكون من الطوائف الآتية:

الأولى: طائفة المشركين: فلم يؤمن كل أفراد قبيلتي الأوس والخزرج، وقد كان يوجد عداهما قبائل أخرى(١).

الثانية: قبائل اليهود الثلاثة التي تملك عصب الاقتصاد في المدينة والتي تشعر بأن لهم وزناً خاصاً ووضعاً ممتازاً في كل مجال عن غيرهم، وهذه القبائل الثلاث هي بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.

الثالثة: طائفة المنافقين الذين رأوا مد الإسلام تتسع رقعته أمامهم بالمدينة، فآمنت به أفواههم ولم تؤمن به قلوبهم.

الرابعة: جماعة المهاجرين: الذين تركوا كل أموالهم وممتلكاتهم بمكة ونزلوا على الأنصار بالمدينة.

---

(١) من هذه القبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وقد رد ذكرها في حديث عند البخاري عن أبي بَكْرَةَ ﷺ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا بَايَعَكَ سُرَّاقُ الْحَجِيجِ مِنْ أَسْلَمَ وَغِفَارَ وَمُزَيْنَةَ وَأَحْسَبُهُ وَجُهَيْنَةَ ابْنُ أَبِي يَعْقُوبَ شَكَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَأَحْسَبُهُ وَجُهَيْنَةُ خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَأَسَدٍ وَغَطَفَانَ خَابُوا وَخَسِرُوا " قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَخَيْرٌ مِنْهُمْ " أخرجه البخاري كتاب المناقب باب ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع جـ ٣ صـ ١٢٩٤. قال ابن حجر: " هذه خمس قبائل كانت في الجاهلية في القوة والمكانة دون بني عامر بن صعصعة وبني تميم بن مر وغيرهما من القبائل فلما جاء الإسلام كانوا أسرع دخولا فيه من أولئك فانقلب الشرف إليهم بسبب ذلك " فتح الباري – ابن حجر جـ ٦ صـ ٥٤٣.

الخامسة: جماعة الأنصار: الذين بايعوا الرسول ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم.

وتختلف النظريات حول بداية هجرة اليهود إلى المدينة وأقوى الأقوال في ذلك أن بداية هجرتهم كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وذلك بعد أن نجح الرومان في السيطرة على مصر وسورية في القرن الأول قبل الميلاد، مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان، واشتدت الهجرة بعد أن فشلوا في التمرد على الرومان في القرنين الأول والثاني الميلادي، وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في المدينة والحجاز " (١).

ولما نزل الأوس والخزرج يثرب لم يكونوا أهل أموال، وإنما كان ذلك لليهود " فعاشوا بين اليهود بالضواحي والقرى في شظف من العيش وهوان وذل، إذ تحكم اليهود فيهم وحكموهم، وأصبح الأوس والخزرج موالي لهم، وعامل اليهود العرب أسوأ معاملة بالاستيلاء على أرضهم، وسلب أموالهم ، والتضييق عليهم في العيش، وإرغامهم على السكنى في مناطق مجدبة المستوطنات اليهودية في عهد الرسول"(٢).

وكان التفكك بارزاً بين سكان المدينة، فلم يكن اليهود على انسجام مع القبائل العربية الموجودة في المدينة، وكان الصراع عنيفا بين قبيلتي الأوس والخزرج، وكان لكل فئة من قبيلة، بل وفرد من عشيرة شأنه ومصلحته ونزوعه، وتبعاً لانحلالهم في العقيدة كان التفكك في الرابطة الاجتماعية وانتشار المفاسد الخلقية والعادات الذميمة واضحاً، ومع ذلك كان عندهم الحافز لتحقيق الوضع الاجتماعي الأمثل، وكانت الرغبة في اكتشاف القائد الحكيم الذي يوحد كلمتهم ويجمع صفهم،

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – د/ جواد علي جـ ٦ صـ ١٥٤ طـ ١٩٦٨.

(٢) المستوطنات اليهودية على عهد الرسول ﷺ – د/ أحمد علي المجدوب صـ ٥٤ طـ الدار المصرية اللبنانية.

ومجتمع كهذا يشعر المرء أمامه أنه مجتمع من نوع خاص، حيث يضم طوائف يختلف بعضها عن بعض اختلافاً قد يكون أحياناً كلياً، وأي حاكم يتولى شئون هذا المجتمع سيشعر بشيء من التردد والحيرة في إدارة هذا المجتمع مهما بلغ من الخبرة والبراعة، وقد يعجز عن حل واحدة من مشكلات هذا المجتمع، ومواجهة ما يتعرض له من أزمات، وإذا استطاع حل واحدة من مشكلاته ظهرت مشكلات أخرى مكانها، لاسيما إذا كان هذا المجتمع متعدد الطوائف، ولا يربط طوائفه رباط قوي، والمجتمع الذي هذا حاله، وتختلف فيه طوائفه هذا الاختلاف تحاك ضده المؤامرات من خارجه وتكثر الاضطرابات من داخله؛ لتضعف كيانه وتقوض أركانه، وهنا تظهر عبقرية العلاج لمثل هذه المجتمعات التي لا يستطيع استقصاء مكامن الداء فيها إلا منهج سيد المرسلين ﷺ.

ثانياً: وسائل النبي ﷺ في تنظيم المجتمع.

لقد كان المنهج النبوي حكيماً في التعامل مع هذا المجتمع بطوائفه المتنوعة، واتخذ ﷺ لتنظيم هذا المجتمع الجديد بطوائفه المختلفة وسائل من أهمها ما يلي:

أولاً: إيجاد الأخوة بين الطوائف المتشابهة مكان العصبية.

لقد لمس النبي ﷺ تمزق العرب في الجاهلية إلى قبائل وعشائر لا يجمعها جامع ولا يقارب بينها شيء سوى المادة والمصلحة وشئون الحياة الدنيا، ورأى كيف أن العربي الجاهلي قد فقد الكثير من الفضائل ومن مقوماته كإنسان صالح لتكوين مجتمع كريم، وبناء حياة حضارية وفقد الكثير من مفهوم التراحم والإخاء الإنسانيين اللذين بهما يقوم بناء المجتمعات.

وظلت قضية البناء تحظى بأولوية في المنهاج النبوي عقب وصول النبي ﷺ المدينة المنورة، فبوصوله إليها كان على الحركة أن تتخطى مرحلة بناء الإنسان إلى بناء المجتمع ثم تجذير عوامل القوة والبقاء في هذا المجتمع، وقد استمر الرسول ﷺ في هذه المهمة حتى في مرحلة المواجهة بل إن المواجهة هي التي أصقلت المجتمع

وعمقت فيه معاني الإيمان والصمود، وكان لا بد لهذا المجتمع أن يشرع في تكوين ذاته وتنظيم شؤونه حتى يستطيع الوقوف أمام الأزمات التي تعرض له، فالمجتمع القوي المتراص هو المعين الذي لا ينضب في التضحية والفداء، والمجتمع الإسلامي المتماسك لا يسمح بوجود الثغرات في داخله ويواجه الأزمات الداخلية بنفس الروح التي يواجه بها الأزمات الخارجية.

وكما ذكرت في المبحث السابق أن المجتمع الجاهلي تركّب على أسس مغايرة للعقل والمنطق، فطغت عليه السلبيات، وتراكمت عليه الأمراض من كل صوب، وكانت هناك أمراضٌ مزمنة علاجها بحاجة إلي وقت طويل وجهد كبير، فكانت العصبية القبلية وكان أخطر ما واجهه النبي ﷺ أثناء بناء المجتمع الإسلامي هو التخلص من هذه العصبية وتصفيتها تصفية شاملة؛ لأنها تنذر دائما بعودة الحالة الجاهلية، كما حث النبي ﷺ على تنمية المشاعر الجماعية وتركيزها مكان النزعة الفردية، فكان لابد أولاً من تصنيف هذه الطوائف ثم توحيد المتشابه منها برباط قوي لا ينفصم، وقد ظهر هذا التشابه والتقارب بين الطائفتين الكريمتين المهاجرين والأنصار، إن النظام الذي يصلح لذلك هو الأخوة، وهي الرباط الذي يحافظ على هذا التقارب ويبقي الصلة بينهما قوية تتحدى عوادي الزمن ووساوس الفتن.

وأما الطوائف الأخرى التي لا تتشابه مع طائفة المسلمين فقد كان بينها فواصل، فقد كانت تشترك في الكفر إلا أن إحداها تعلنه والأخرى تبطنه والثالثة وأخطرها طائفة اليهود، ولشدة خطورتها يجب اتخاذ موقف قانوني حازم ونظام تشريعي محكم يلزم كل جانب ويعرفه بواجبه وحقه ويضاعف جزاءه إن أخل بواجبه أو نكث عهده، فسارع ﷺ في وضع الركائز الأساسية للمجتمع الجديد حسب أولويتها وأهميتها، ورغم هذه الركائز الأساسية التي بُني عليها المجتمع؛ إلا أنه ظل يواجه تحديات كبرى، ومخاطر محدقة، ولعل أبرزها مما له صلة بالبحث إثارة الأزمات داخل المجتمع المسلم؛ من قِبل اليهود ودسائسهم ومؤامراتهم وعتّوهم وفسادهم وعداوتهم

لرسول الله ﷺ وللمسلمين، وكذلك المنافقين وصعوبة التعامل معهم بحكم شخصيتهم وازدواجية معاييرهم.

فقد كان بالمدينة يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار، و كان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، ثم كان بها اليهود، أما المهاجرون والأنصار فقد ربط الإسلام بينهم بأوثق رباط، فكان أول ما انصرف إليه تفكيره ﷺ بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، للقضاء على كل شبهة في أن تثور العداوة القديمة بينهم، ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا في اللّه أخوين أخوين، واطمأن النبي ﷺ بهذه المؤاخاة إلى وحدة المسلمين، وهي لا ريب حكمة عظيمة تدل على سلامة تقديره وبعد نظره ﷺ، ويظهر مقدار هذه المؤاخاة جلياً فيما بعد، عندما حاول اليهود تارة والمنافقون أخرى الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وإثارة البغضاء القديمة بينهم، وبين المهاجرين والأنصار لإفساد أمرهم، واستطاع ﷺ توحيد هذا المجتمع الجديد بطوائفه المسلمة في قالب جديد، والمؤاخاة بينهم لينصهروا معاً في بوتقة واحدة، أما على مستوى بناء العلاقات الاجتماعية الجديدة فقد تمكن النبي ﷺ من إزالة التفرقة العنصرية والاجتماعية وغرس الأخوة الحقيقية بين المسلمين، وقد استطاع النبي ﷺ أن يؤاخي بين المسلمين، حتى صارت شتى الجنسيات المختلفة منذ فجر الإسلام تستظل بمظلة الإسلام الكبرى، فهنا سلمان الفارسي، وهنا بلال الحبشي، وهنا صهيب الرومي، والكل يعيش في ظل راية الإسلام، وتحت مظلة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وكانت سياسة النبي ﷺ في هذه الظروف سياسة القائد المحنك الرشيد، فقد نظم صفوف المسلمين وأكد وحدتهم، وربط بينهم برباط قوي متين في تلك الأخوة النادرة المثال بين الأنصار والمهاجرين " والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده، نشّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلّمهم الإيمان والعمل جميعاً،

فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة " [١]

وقد شكلت المؤاخاة صدارة اهتمامات النبي ﷺ؛ تحقيقا للترابط والتعاون بين المسلمين، ولم تتم هذه المؤاخاة تحت الضغط والإكراه، وإنما تمت برغبة جامحة، واندفاع قوي يعبر صراحة عن قوة رابطة الأخوة في الله، ولم تكن هذه الخطوة مجرد شعارات ترفع؛ إنما كانت خطوة عملية، أشرف النبي ﷺ على تنفيذها، وقام بتجسيدها على أرض الواقع، بتحديد التآخي المباشر بين المهاجرين والأنصار، بقوله: " تآخوا في الله أخوين أخوين " [٢]

وبلغ من فهم الأنصار للأخوة في الله، أن عرضوا على المهاجرين خير أراضيهم، وخير أموالهم، وخير أهلهم، فضربوا بهذا المستوى في الكرم المثل الأعلى في الحب والإيثار، فكان أن أثنى الله عليهم، وعلى المهاجرين لعفتهم في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [٣]

وتنافس الأنصار في إيواء إخوانهم المهاجرين حتى أصبح إسكان المهاجرين في دور الأنصار بالقرعة، فهذه امرأة من الأنصار ممن بايعت رسول الله ﷺ تحكي قصة في ذلك " فعَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِمْ بَايَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ طَارَ لَهُمْ فِي السُّكْنَى حِينَ اقْتَرَعَتْ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ فَاشْتَكَى عُثْمَانُ عِنْدَنَا فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى تُوُفِّيَ " [٤]

ولما فتحت البحرين أراد رسول الله ﷺ أن يعوّض الأنصار بعض ما صرفوه على

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - علي محمد محمد الصلّابي صـ ٣١٤.

(٢) السيرة النبوية- ابن هشام جـ ٣ صـ ٣٦.

(٣) سورة الحشر الآية ٩.

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مقدم النبيﷺ وأصحابه المدينة جـ ٣ صـ ١٤٢٩.

إخوانهم المهاجرين، يقول أنس بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: " دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْصَارَ إِلَى أَنْ يُقْطِعَ لَهُمْ الْبَحْرَيْنِ فَقَالُوا لَا إِلَّا أَنْ تُقْطِعَ لِإِخْوَانِنَا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا قَالَ إِمَّا لَا فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ " (١)

وهذا يدل على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم، وحقاً فقد كانت هذه المؤاخاة حكمةً فذةً، وسياسةً حكيمةً، وحلاً رشيداً لكثير من المشاكل والأزمات التي تعرض لها المسلمون فيما بعد.

وقد كان قبول المهاجرين لهذا الأمر بشكل مؤقت، ريثما يتعرفون على سوق المدينة وطرق ممارسة التجارة فيها " والمتأمل في هذا الأفق العظيم لمعالم المجتمع النبوي الذي أسسه النبي ﷺ من خلال المؤاخاة، وما رافقها من حب وبذل وتضحية وإيثار، وما يُرى في عالمنا المعاصر من مبادئ ومثل، تقدم للناس على أنها الحق والأمل والرجاء، ولكن في حقيقتها تخفي القهر والتسلط، وقتل الخير في نفوس الناس، مما يكتشف عظمة هذا الدين في بناء الإنسان قبل بناء الدولة " (٢)

ونظرة متأنية في الواقع المعاصر يلاحظ أن العالم قد دمر بالحروب وبالتفرقة العنصرية، وتمزق بالتعصب الشخصي أو المصلحة الخاصة على مستوى الأفراد والجماعات، ولكن الإسلام بتعاليمه يمحو الفوارق ويذيبها بين الجنسيات المتنوعة ويجمع الشتات، ويربط الجميع بأخوة واحدة، فيعيشون جميعاً تحت مظلة الإسلام، وساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام النبي ﷺ هذه الصلة

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ للأنصار (اصبروا حتى تلقوني على الحوض) جـ ٣ صـ ١٣٨٠.

(٢) فقه السيرة النبوية – منير لغضبان صـ ٢٣٣، ٢٣٧ طـ معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.

على أساس الإخاء الكامل بينهم، يقول الشيخ محمد الغزالي واصفاً هذا الإخاء: " ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بتقواه ومروءته، وقد جعل الرسول ﷺ هذه الإخوة عقداً نافذاً لا لفظاً وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر " (١)

وقد ذابت العنصرية والقبلية في الأخوّة الإيمانية، وأصبح التفاضل على أساس قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٢)

لقد حققت المؤاخاة أهم أهدافها، وهو نهوض المجتمع الجديد، فأي مجتمع لا يمكن أن ينهض إلا على أساس من الوحدة بين أفراده، ولا يمكن لهذه الوحدة أن تتم بغير أصرة التآخي والمحبة المتبادلة بينهم، لكن المجتمع المعاصر الآن سيطرت على نفوس بعض أفراده العصبية والأنا، وهذه الأمراض تحيل بين المجتمع وبين التمكين، وتضعف الصفوف بل وتشتتها.

لقد ضرب الصحابة في هذا الأساس أروع الأمثلة، فكما حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة...! كذلك قدّر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف، وكان النبي ﷺ هو القائد والمربي الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة، فلم يتميز عنهم بشيء، فهو فيهم ومنهم، حتى إن الرجل الذي لا يعرف النبي ﷺ ويأتي ليسأل عنه وهو جالس بين أصحابه ويقول لهم: أيكم ابن عبد المطلب...؟ لقد كان النبي ﷺ صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن البشر أن يبلغها، إنها الأخوة في الله التي هي أوثق عرى الإيمان ومن وجدها ذاق حلاوة الإيمان،

(١) فقه السيرة – محمد الغزالي صـ ١٠٣ طـ السابعة دار الكتب الحديثة ١٩٧٦م.

(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣.

ونال رضا الرحمن، ولها من الأهمية ما تعجز عن وصفها الأقلام، وتتواضع أمامها المفردات، ومما لا ينبغي أن نضرب عنه الذكر صفحاً أن الإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة فحيث يشيع الجهل والجبن والجشع وسيطرة المصالح الفردية وغيرها من الأمراض الاجتماعية لا يمكن أن يصح إخاء أو تترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جبلوا على شمائل نقية واجتمعوا على مبادئ رضية ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله "[1]

الأخوة فريضة دينية وضرورة اجتماعية:

لقد أكّد النبي ﷺ في غير موضع أهمّيّة الأخوة بين المسلمين ووجوب الترابط بينهم، ونهى عن الشحناء والبغضاء والشقاق والخلاف والفرقة، فشبّههم بالبنيان في قوّة ترابطه وتماسكه، فعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا " [2]

وشبّههم بالجسد الواحد في دقّة الإحساس وسرعة المواساة، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[3]

ورغّب بالقيام بحاجة المسلم ومساعدته ونصحه وإعانته في جميع أحواله، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ

(١) فقه السيرة – محمد الغزالي صـ ١٩٣.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره جـ ١ صـ ١٨٢، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ جـ ٨ صـ ٢٠.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم جـ ٥ صـ ٢٢٣٨، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ جـ ٨ صـ ٢٠.

الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.." [1]

بل إنه ساواه بالنفس في محبّة الخير وكره الشر: فعَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" [2]

وحذّر من جميع الخصال التي توجب الفرقة والبغضاء والتباعد بين المسلمين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا" [3]

هذه طائفة من الأوامر والنواهي النبوية التي تأمر بالأخوة وتنهى عن الفرقة، فليس المجتمع المسلم جماعة من الناس همها أن تعيش بأي أسلوب أو تسير في الحياة إلى أي وجهة، وليس همها أن تجد القوت ولقمة العيش واللذة، وأنها إذا حققت ذلك فقد أراحت واستراحت، كلا فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوضح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شؤونهم في الداخل، وتبين صلاتهم في الخارج، وفرق بين إنسان يكون همه في الدنيا أن يحيا لنفسه فحسب، وآخر يصون الحقوق ويرضي الله ويغضب من أجله، والمهاجرون حينما تركوا أرضهم ووطنهم وهاجروا إلى المدينة لم يكن ذلك ابتغاء ثراء واستعلاء، والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء ووضعوا أرواحهم على أكفهم لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفقوا وكما يحلوا لهم، لقد أراد الجميع أن يستضيئوا بالوحي، وان يحصلوا على رضوان الله، وان يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خُلق الإنسان وقامت الحياة.

(١) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب فَضْلِ الاجْتِمَاعِ عَلَى تِلاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ جـ ٨ صـ ٧١.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه جـ ١ صـ ١٤، ومسلم كتاب الإيمان باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ خِصَالِ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لأَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ جـ ١ صـ ٤٩.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر جـ ٥ صـ ٢٢٥٣، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تَحْرِيمِ الظَّنِّ وَالتَّجَسُّسِ وَالتَّنَافُسِ وَالتَّنَاجُشِ وَنَحْوِهَا جـ ٨ صـ ١٠.

وهذا درس لبني جلدتنا ممن يتشدقون بمصالح الوطن العليا وحقيقة أمرهم الحرص على مصالحهم الشخصية، وتحقيق مكاسب مادية، ومحاربة الإسلام بكل وسيلة متاحة لهم.

إن الأخوة هي الضمانة الطبيعية والفطرية لإقامة المجتمع السليم القائم على أساس من العدالة والمساواة، فإذا كان التآخي والتناصر والتعاون قائماً في مجتمع ما فان ذلك المجتمع هو المجتمع السليم، وإذا فقد ذلك كان ذلك المجتمع قائماً على الحيف والظلم وذلك هو المجتمع الظالم والمنحرف، ثم إن الأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم إنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والأنانية والشح وقد فهم الرعيل الأول من الصحابة – رضوان الله عليهم– هذه المعاني واستشعروها ليس لأنهم تلاميذ محمد ﷺ فحسب وإنما لأنهم ارتقوا بالإسلام في نواحي حياتهم كلها فكانوا عباد الله إخوانا، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض " إن الأخوة منحة من الله عز وجل يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وهي قوة إيمانية تورث شعوراً عميقاً بعاطفة صادقة ومحبة وود واحترام وثقة متبادلة مع كل من تربطنا بهم عقيدة التوحيد ومنهج الإسلام الخالد يتبعها ويستلزمها تعاون وإيثار ورحمة وعفو وتسامح وتكامل وتآزر، إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين والفهم الكامل لهذه الأخوة هو من أسباب تماسك حقوق المسلمين وقوتهم ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم "[1]

قلت: وإننا اليوم في مصر بأشد الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار، لنرتقي إلى المستوى الإيماني الذي وصلوا إليه أمام المظاهر الزائفة من الأخوة باللسان التي لا تُجدي نفعاً، لأنه يستحيل أن تستقيم الأمور

(١) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين – د/ علي محمد محمد الصلّابي صـ ٣١٦ طـ مكتبة التابعين القاهرة ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م.

وينتشر الأمن ويعم الرخاء وتتحقق الحياة القوية إذ لم يتخلق المجتمع المصري وكل المجتمعات الإسلامية بهذه الأخلاق الكريمة، وتسموا إلى هذا المستوى الإيماني الراقي.

فالأخوة هي الأساس الذي اعتمده النبي ﷺ في سبيل بناء المجتمع الإسلامي، هذه الأخوة التي تزول من خلالها كلمة (أنا) ويتحرك الفرد بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها فلا يرى لنفسه كياناً دونها ولا امتداداً إلاّ فيها مما لا يوجد في واقعنا المعاصر.

إن الفرد المسلم منا حين يشعر أن له إخوة يحبهم ويحبونه وينصرهم وينصرونه خاصة إذا تفاقمت الأزمات وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فان هذا مما يرفع روحه المعنوية بل ويرفع الذاتية ويجعله أقوى عزيمة، وان فقدان مثل هذه المؤاخاة مما يضعف الصف الإسلامي، ويجعل الفرد المسلم يشعر أحياناً أنه وحيد أمام أعدائه يكنّون له كل حقد ويحيطون به من كل جانب، فكيف يستطيع تحمل كل هذه الضغوط النفسية والمادية، إنها الأخوة في الله الدواء لهذا الداء.

ثانياً: دستور يضبط العلاقة بين الطوائف المتشابهة والمتنافرة:

إنْ كان النبي ﷺ قد نزع فتيل العداوة والخصام بين صفوف العرب المؤمنين وثبّت المؤاخاة بينهم، إلا أنه قد بقي خطر الفتن التي تثيرها طوائف في المجتمع متنافر مع جماعة المسلمين، يقول ابن القيم: " وَلَمّا قَدِمَ النّبِيّ ﷺ الْمَدِينَةَ، صارَ الكفارُ معه ثلاثة أقسام: قِسم صالَحهم ووادعهم على ألا يُحاربوه، ولا يُظاهِروا عليه، ولا يُوالوا عليه عدوَّه، وهم على كُفرهم آمِنونَ على دمائهم، وأموالهم. وقسم: حاربوه ونصبوا له العَدَاوة. وقسم: تاركُوه فلم يُصالِحوه ولم يُحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمْره وأمرُ أعدائه، ثم مِن هؤلاء: مَن كان يُحِبُّ ظهورَه وانتصاره فى الباطن، ومنهم: مَن كان يُحِبُّ ظهورَ عدوه عليه وانتصارَهم، ومنهم: مَن دخل معه في الظاهر وهو مع عدوِّه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المُنافقون، فعامَلَ كُلَّ

طائفةٍ مِن هذه الطوائف بما أمره به ربُّه تبارك وتعالى، فصالح يهودَ المدينةِ، وكتب بينهم وبينه كتابَ أمن..." [1]

وإذا كان اليهود هم أخطر هذه الطوائف فكان لابد من عمل يأمن معه من خطرهم وتآمرهم، فاتفق معهم على الموادعة بموجب كتاب وادعهم فيه وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه وأن ينصروه على من دهمه وشرط لهم، يقول الشيخ محمد الغزالي: " حينما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وجد اليهود مستقرين، فلم يتجه فكره ﷺ إلى رسم سياسة لإبعادهم أو مصادرتهم، بل قبل وجودهم وعرض عليهم أن يوادعهم ويعاهدهم على أن لهم دينهم وله دينه"[2]

وبهذه الموادعة أجهز النبي ﷺ ولو مؤقتا على أي احتمال يكون لنشوء اضطراب بين أبناء المجتمع الجديد، بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو بينهم وبين اليهود من طرف آخر، وضمن الأمان والسلام في ربوع مجتمعه الجديد، واطمأن إلى نجاح خطته التي تهدف إلى تنقية كل الأجواء المحيطة بمناخ دعوته إلى الله تعالى، فقام المجتمع الإسلامي مترابطاً آمناً.

لقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المجتمع الجديد، وكتب في ذلك كتاباً، أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظ الدستور والوثيقة " [3]

ونصت هذه الوثيقة على أن اليهود من مواطني الدولة الإسلامية إلى جانب

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد – ابن القيم جـ ٣ صـ ١٢٦ طـ السابعة والعشرون مكتبة المنار الإسلامية ١٤١٥هـ ١٩٩٤م

(٢) فقه السيرة – محمد الغزالي صـ ١٩٤.

(٣) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – د/ علي محمد محمد الصلابي صـ٣٢٣.

المسلمين، وحددت مالهم من حقوق، وما عليهم من واجبات، وأن النبي ﷺ يرجع إليه في كل خلاف فهو الضابط والمنظم للعلاقات الاجتماعية في الدولة الناشئة.

وإن كانت الوثيقة فيها كلام من ناحية الصحة والضعف بل والوضع فإنها بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في الأحكام الشرعية، سوى ما ورد منها في كتب الحديث الصحيح ولكنها تصلح أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية، خاصة وأن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة.... ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابه بينه وبينهم "[1]

فهذه الوثيقة كانت دستوراً- كما في الاصطلاح الحديث- لدولة الإسلام تسير عليه، وعالجت فيه النظام الداخلي والخارجي للأمة، فكانت الأساس الأخير الذي وضع لبنيان دولة الإسلام، ومن تطبيق هذه الوثيقة والاهتداء بما فيها والتمسك بأحكامها قامت دولة الإسلام على امتن ركن وأقوى أساس، ثم انتشرت قوية راسخة في شرق العالم وغربه تقدم للناس أروع ما عرفته الإنسانية من مظاهر الحضارة

(١) جوامع السيرة – ابن حزم – صـ ٩٥ طـ الأولى دار المعارف مصر ١٩٠٠ م، إمتاع الأسماع- المقريزي – جـ ١ صـ ٤٩ طـ الأولى دار الكتب العلمية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩. البداية والنهاية – ابن كثير –جـ ٤ صـ ١٠٣، ١٠٤ طـ الأولى دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، وبنود هذه المعاهدة كما يلي:١- إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود،٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم،٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة،٤- وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم،٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه،٦- وإن النصر للمظلوم،٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين،٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة،٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ،١٠- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها،١١- وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم،١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم " الرحيق المختوم- المباركفوري صـ ٢٠٣، ٢٠٤.

والمدنية الصحيحة، يقول المباركفوري: " بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة، بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة الخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم المليء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية، وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام"(١)

بهذا تعد الصحيفة إحدى الركائز الأساسية للمجتمع الإسلامي الجديد، والدعامة الأساسية للدولة الإسلامية الناشئة، والمتأمل في بنودها شكلا ومضمونا يتأكد من أن الإسلام دين حضاري، قائم على التنظيم، قادر على تقنين مجالات الحياة وفق الأطر الشرعية السليمة .

" وأكدت الوثيقة قيادة الرسول ﷺ لجميع سكان المدينة : مسلمين، ومشركين، ويهود، وأن يقفوا صفاً واحداً للدفاع عن المدينة، وصد أي اعتداء خارجي عنها، واستطاع الرسول بهذه الوثيقة التي شملت ببنودها الجميع، أن يجعل أهل المدينة كلهم على اختلاف أديانهم وميولهم وأهوائهم يداً واحدة على أعدائهم، متخذاً كافة الاستعدادات لحشد قواته في مكان واحد وتحت قيادة واحدة؛ لحماية الدعوة، والدفاع عن المشروع الحضاري للأمة " (٢)

(١) الرحيق المختوم – صفي الرحمن المباركفوري صـ ٢٠٣.
(٢) الرسول القائد – محمود خطاب شيت صـ ٧٠.

ومما يلاحظ على هذه الوثيقة:

١ – أن النبي ﷺ قد صار الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة.

٢ –أن النبي قد أقام النظم الاجتماعية على أساس المشاركة.

٣ – إنه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بالمدينة رعية واحدة مع المسلمين، فلا يكون له أحكام خاصة بهم لا تسري على غيرهم، ولا يختصون بنظم لا تطبق على غيرهم، مع احتفاظهم بدينهم.

وبهذا يتبين أنه بالأخوة بين المؤمنين– المهاجرين والأنصار– وبموادعة اليهود؛ دعّم النبي ﷺ الجبهة الداخلية وأمّن جانبها فأرسيت قواعد الدولة، وتميزت الشخصية الإسلامية، وبدأت تأخذ مكانها في المجتمع الجديد وأصبح للمسلمين شوكة وقوة؛ كل ذلك بفضل إيمانهم ووحدتهم وتآخيهم.

المبحث الثالث

صناعة الشخصية القيادية لمواجهة الأزمات

أولاً: تعريف القيادة.

جاء في (لسان العرب): " القَوْدُ نقيض السَّوْق، يَقُودُ الدابَّة من أمامها ويَسُوقُها من خَلْفِها، فالقَوْدُ من أمام والسَّوْقُ من خَلْف... والقائِدُ واحد القُوَّاد والقادة، ورجل قائد من قوم قُوَّد وقُوَّاد وقادة، وأقاده خيلاً أعطاه إياها يَقُودها، والمِقْوَدُ والقِيادُ الحبل الذي تقود به، والقائدةُ من الإبلِ التي تَقَدَّمُ الإبِلَ وتَأْلَفُها " (١)

فالقائد هو من يكون في مقدمة الناس يوجههم ويرشدهم ويتلقون منه سواء كانت هذه القيادة تكليف (أوامر) من الشخص القائد، أو قيادة معنوية (قدوة) حيث ينظر الناس إلى عمله وفعله فيقتدون به.

والقائد هو الشخص الذي يملك قدرة التأثير على سلوك الغير؛ لتميز قدراته الشخصية عن باقي المجموعة، مثل المعرفة، والخبرة، وبعد النظر، وسعة الإدراك، والأمانة، وتحمل المسئولية.

وبهذا يظهر أن القائد هو شخص يوجه أو يرشد أو يهدي الآخرين. ..بمعنى أن هناك علاقة بين شخص يوجه وأشخاص آخرين يقبلون هذا التوجيه، فالقيادة بهذا المعنى المفهوم عملية رشيدة فيها طرف يوجه ويرشد، وطرف الآخر يتلقى هذا التوجيه والإرشاد الذي يستهدف تحقيق أغراض معينة.

فالقيادة عملية توجيهية لمجموعة من الأفراد نحو أهداف محددة، والقائد - بوجه عام- هو كل من يقوم بتوجيه جماعة من الناس والسير بهم للوصول إلى أهداف محددة.

ثانياً: مكانة القيادة في الإسلام.

بدأت القيادة في الإسلام مع نشأة الدعوة الإسلامية، حيث تولى الرسول ﷺ قيادة

(١) لسان العرب - ابن منظور جـ ٣ صـ ٣٧٠ مادة (ق و د) طـ الأولى دار صادر بيروت.

المسلمين وتوجيههم، وتحديد أهداف الدعوة لهم، وهي نشر التوحيد، وتخليص البشر من الشرك وعبادة الأوثان، ثم تطورت القيادة وتنوعت في مجالاتها ومسؤولياتها بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وتأسيسه للدولة الإسلامية فيها، حيث قام ﷺ بشؤون السياسة العامة، وتدبير شؤون الأمة، و رعاية مصالحها وغير ذلك مما يضبط أمور الناس، ويرقى بحياتهم، ويأخذ بأيديهم إلى النهج الحضاري القويم.

فالقيادة ظاهرة اجتماعية لا بد منها، فلا تستقيم حياة المجتمع ولا تسير بانتظام دون وجود قيادات في مستوياتها العليا أو الدنيا، فالوجود المشترك لشخصين أو أكثر يخلق نوعاً من الحاجة إلى من ينظم العلاقات القائمة بينهم، ولقد قرر الإسلام هذه الحقيقة بل جعلها من الواجبات على الأمة عامة، وحتى ولو كانت في مجموعة صغيرة، فإنها بحاجة إلى من ينظم العلاقة بينها ويقودها، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ " (١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فإذا كان قد أوجب في أقل الاجتماعات أن يولي أحدهم كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك " (٢)

ومما يدل على أهمية القيادة ما يظهر من أن صلاح شؤون الناس أو فسادها يتوقف- غالباً - على قادتها ومن بيده زمام أمرها لما بيدهم من سلطة في تدبير الأمور وهيمنته عليها، فإذا كان هؤلاء القادة ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، و ممن لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً؛ ساروا بالناس على طريق الخير والرشد والصلاح، فكثر الخير، وفشت الفضائل، وتنامت الحسنات، وقامت المصالح.

وأما إذا كانت القيادة بأيدي رجال انحرفوا عن طريق الاستقامة، وغفلوا عن

(١) أخرجه أبو داود كتاب الجهاد باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم جـ ٢ صـ ٣٤٠ طـ دار الكتاب العربي بيروت.وقال الألباني " إسناده حسن صحيح" صحيح أبي داود - الألباني صـ ٧ صـ ٣٦٣ طـ الأولى مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٢) مجموع الفتاوى - ابن تيمية جـ ٢٨ صـ ٦٥ طـ: الثالثة دار الوفاء ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م

الآخرة، واتبعوا الشهوات، وانغمسوا في الفجور فلا محالة أن يسير نظام الحياة جملة على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات، والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والأخلاق والمعاملات والعدالة، وتنمو السيئات وتشيع.

ولقد كرم الإسلام القائد خير تكريم ووضعه في أسمى منزلة، فحق القائد في الطاعة وارد ومقرر في أكثر من موضع في كتاب الله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)(١)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " (مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنْ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) (٢)

وعَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ فَجَذَبَهُ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ "(٣)

وعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ " (٤)

ولكن الطاعة التي يريدها الإسلام هي طاعة واعية بصيرة، ولعل الأثر الأهم للعناية بالفرد والمجتمع فيما يتصل بالقيادة، وموقف أفراد المجتمع منها يتمثل في

(١) سورة النساء من الآية ٥٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفتن: باب: قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورا تنكرونها جـ ٦ صـ ٢٥٨٨، ومسلم كتاب الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن جـ ٣ صـ ١٤٧٧.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق جـ ٦ صـ ١٩.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأحكام السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية جـ ٦ صـ ٢٦١٢.

التزام المسلمين السمع والطاعة للولاة والقادة، والبعد عن مخالفتهم، أو عصيان أمرهم، استجابة للأوامر الإسلامية السابقة، والحق أن جعل الطاعة القاعدة الأساسية في صلة أفراد المجتمع بولاة الأمور هي من أعظم الأسباب في اجتماع الكلمة ووحدة الصف، وفيها قوة للقادة للقيام بالواجبات الموكلة إليهم، مع القاعدة العظيمة التي شرعها الإسلام وحرص على إقامتها وإلزام المسلمين بها، وهي (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وذلك لأن الموافقة على الباطل، والمداهنة على المنكر سبب لظلم القادة وتجبرهم وطغيانهم، فالنفوس تميل إلى الطغيان – غالباً – فإذا انضم إلى ذلك السلطة والنفوذ، مع الموافقة والمداهنة زاد الأمر واستحكم، غير أن الإسلام بتشريعه لهذه القاعدة أقام سداً منيعاً بين القادة وأسباب الظلم والاعتداء؛ ليقينه أنه إذا أمر بمعصية أو سن ما يخالف الشرع فلن يرضى المسلمون بفعله، فضلاً عن أن يُوافق على ضلاله وظلمه.

وقد أكد الرسول ﷺ هذه القاعدة في مواطن كثيرة، و شدد في أمرها، ففي الصحيحين عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنْ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتْ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: " لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ (١)

من هنا يتبين أهمية القيادة واهتمام الإسلام بها وأنها من الدين، فلا يمكن أن يستقيم عيش الناس ولا دينهم دون قيادة، وهذا يشمل المجتمع بكامله لقول النبي ﷺ : " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ

(١) أخرجه البخاري كتاب الأحكام السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية جـ ٦ صـ ٢٦١٢، ومسلم كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية جـ ٣ صـ ١٤٦٩.

وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " (١)

ثالثاً: أهمية القيادة وقت الأزمات.

إذا كانت القيادة مهمة في الأوقات العامة فهي في وقت الأزمات أكثر أهمية، فالناس في الأزمات يبحثون عمن يوجههم بفعله وقوله نحو الأسلوب الأمثل لتلافي الأزمات لاسيما عندما تتوفر في القائد الصفات التالية:

١- قدرة القائد على جمع الجهود المتفرقة وتوجيهها إلى هدف واحد، مما يعطي إمكانية أكبر لحل الأزمة أو تلافيها.

٢- قدرة القائد على حل الخلافات، وجمع الآراء وتوجيهها، واستثمار أصحاب التخصصات المختلفة في ذلك، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

٣- تمتع القائد بالقبول والطاعة يعطي أثراً في النفوس بالطمأنينة والثقة وعدم الخوف والاضطراب.

وعند استعرض التاريخ القديم منه والحديث يتبين أن نقطة التحول في الأزمات والعنصر الفاعل فيها هو تلك القيادات المتميزة التي استوفت مقوماتها والتي تتمثل في القدوة الحسنة، والمثال الطيب لشخص قائد فريق المهام الأزموية، وصفاته الذاتية وما يضفيه على رجاله من سجايا، ومُثل وسلوكيات هامة والتي استطاعت أن توجه المجتمعات إلى حلول لأزماتها " فأسلوب التعامل مع الأزمة، وردود الفعل، وطرق التعامل، وأساليب التدخل تتأثر تأثيراً كبيراً بالطبيعة الفكرية والنفسية والشخصية لقائد فريق المهام الأزموية " (٢)

رابعاً: منهج النبي ﷺ في صناعة القادة.

القيادة تكليف يحتاج إلى استعداد، ومسؤولية تحتاج إلى رعاية، وليس كل أحد قادراً

(١) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن جـ ١ صـ ٣٠٤.

(٢) إدارة الأزمات - محسن بن أحمد الخضيري صـ ٢٠٧ ط الثانية مكتبة مدبولي.

على القيام بها وأدائها على وجهها، وقد نبه النبي ﷺ إلى هذا عندما طلب منه أبو ذر الغفاري ﷺ أن يستعمله على بعض الأعمال فقال: " ا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا " (١)

ولقد أولى النبي ﷺ اهتماماً كبيراً بتكوين الطليعة الأولى لقيادة هذه الأمة، وقد هيأ الله له من المعرفة والتسديد ما استطاع به أن يغير معالم هذا العالم من خلال تربية متميزة، فمهمة إيجاد القائد هي مهمة تربوية في المقام الأول، فالتربية المتكاملة مع حسن الانتقاء والاختيار لهما الأثر الأكبر في صناعة القيادات ووضع الأساس واللبنة الأولى لانطلاقها.

ولقد وضح ذلك جلياً في سيرة النبيﷺ حيث ربى النبيﷺ جيلاً قائداً قاد العالم إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة "إن هذا الجيل من كبار القادة الذي صاغه نبي الهدى ﷺ هو الذي نقل روح النبوة وهديها إلى كل أرجاء الوجود، فحكم هذا الهدى وأضاء الوجود بهذا النور، إنه جيل قيادي قد عز نظيره في التاريخ، لأنه تربى بكتاب الله وآياته، وتربى برسول الله ومصطفاه من خلقه، فمن عنده مثل هذا المعهد؟ ! ومن عنده مثل هذه المدرسة، فليطلع لنا قرنه؟"!(٢)

لقد كان منهج النبيﷺ في صناعة القادة يقوم على مراحل محددة يمكن إيجازها فيما يلي:

أولاً : مرحلة الانتقاء.

كان النبي ﷺ يحرص على من توفرت فيهم الإمكانات الذاتية للقيادة، ويمكن تلخيص هذه الصفات في النقاط التالية:

١- الإمكانات العقلية.

فالقائد لا بد أن يكون لديه مقدرة على تحليل الأمور واتخاذ الرأي الصائب، ويتضح

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة جـ ٣ صـ ١٤٥٤.

(٢) التربية القيادية - منير الغضبان جـ ١ صـ ٩ طـ دار الوفاء ١٤١٨ ه ١٩٩٥ م.

هذا المعنى من موقف خالد بن الوليد وعمرو بن العاص – رضي الله عنهما- بعد عمرة القضاء، يقول الأستاذ عباس العقاد:.." وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما في رجاحة العقل والخلق مثلان متكافئان يحتذى بهما، وهذا الذي قاله ﷺلخالد بن الوليد عندما جاءه مسلماً قال: قال رسول الله ﷺ: " الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير "[1]

٢- المكانة الاجتماعية وقوة التأثير.

كان النبي ﷺ يراعي مسألة المكانة الاجتماعية لما لصاحبها من تأثير في غيره، لذا كان حريصاً ﷺ على دعوة كبار قريش أشد الحرص، حتى كان ابن أم مكتوم ﷺ يأتيه فينشغل عنه ﷺ فيتنزل عليه قول الله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى* وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى* وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى* وَهُوَ يَخْشَى* فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)[2]

فالمكانة الاجتماعية صفة ضرورية تميز سلوك القائد عند اتصاله مع الأفراد والجماعات وتعامله معهم، فيستطيع التأثير فيهم كي يوجههم إلى ما فيه صلاحهم، وقد راعى النبي ﷺ هذا الجانب فكان التركيز على الجانب الاجتماعي في بدايات الدعوة ، مع العلم بالمكانة الاجتماعية لقريش في العرب وكيف أن الله هو الذي اختار قريش من بين العرب ليكون النبيﷺ منهم.

٣- القدرة الجسمية.

" إن عمل القائد يتطلب بذل الجهد، والحركة، وقوة التحمل، والعمل لساعات متصلة تحت ظروف الضغط في كثير من الأحيان، والاحتفاظ بروح التحمس للعمل،

(١) الرسول القائد – عباس العقاد صـ ٤٣ ط الثانية دار مكتبة النهضة بغداد، ١٩٦٠م

(٢) سورة عبس الآيات ١: ١٠.

والتماسك في المواقف العصيبة" [1]

وهذا يقتضي سلامة الحواس من السمع، والبصر، واللسان، حتى لا تتعطل أو تنقص درجة الاتصال مع الغير، مع أن هذه القدرة الجسمية ليست على إطلاقها، فقد توجد لدى القائد من الحماسة والصدق والفهم والرغبة ما يعوض بعض هذا النقص.

ثانيًا: مرحلة الاصطفاء والتربية:

إن التربية المتزنة إذا صادفت محلاً قابلاً وأرضاً خصبة أثمرت نتاجاً طيباً من قيادات واعية على مستوى عالي من النضج، ولهذا كانت هذه المرحلة مبنية على المرحلة السابقة ومكملة لها، وكلما كان الانتقاء من عناصر متميزة كانت التربية متميزة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالَ: " تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا " [2]

وقد سلك النبي ﷺ في اختيار القادة وتنمية شخصيتهم الأساليب التالية :

١- التربية على معالي الأمور لمواجهة الأزمات.

سلك النبي ﷺ مع القادة التربية على معالي الأمور، فإن كان هناك موطن صبر فالقادة هم أول من يصبر، وإن كان موطن شجاعة فمن يربيهم على القيادة هو رأس الناس فيها.

فإذا كانت التربية على الأزمات تلزمها بعض الصفات من صبر، وإيمان، وأخلاق، فالقائد لا بد أن يكون أعلى من غيره في التربية على هذه الأمور فعن عتبة بن غزوان ﷺ في حديث له قال: " وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ

(١) مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية – سيد عبد الحميد ص ٦٩ طـ سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي العدد ٥١ جمادي الآخرة، ١٤٠٦هـ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب باب قول الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات ١٣ جـ ٣ صـ ١٢٨٨.

مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنْ الْأَمْصَارِ وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيراً "(١)

وأما التربية التي تُبنى على الرُخص والحد الأدنى من الفضائل فهي وإن كانت تثمر أفراداً على مستوى من التربية؛ لكنهم لن يستطيعوا أن يكونوا على مستوى القيادة، أو يُنظر إليهم على أنهم على مستوى مواجهة الأزمات والشدائد.

ولعل هناك من يرى أن القائد لا يحتاج إلى تربية خلقية وتزكية نفسٍ بقدر ما يحتاج إلى مهارات في أساليب إدارية وطرق سياسة الناس؟!

ولكن قد يصح هذا المعنى في غير أمة الإسلام؛ ولهذا يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في خصائص القيادة في الإسلام: " إنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق، يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها" (٢)

٢- استكشاف الإمكانات والقدرات القيادية وتوجيهها.

إن اكتشاف القيادات المهارية وتفعيلها مهمة ليست بالسهلة، بل تحتاج إلى مربي صاحب نباهة وعلم بالرجال، ومن ذلك تكليفهم بالمهمات الصعبة والتي لا يستطيعها إلا من توفرت لديه صفات القيادة من الحنكة والشجاعة، ولقد كان النبيﷺ يحرص كل الحرص في اختيار القادة أن يكلف كل قائد بالعمل الذي يناسبه، فقد يكون من ضمن من يقودهم من هو خير منه في كثير من النواحي، لكنّ النبيﷺ كان يجعل

(١) أخرجه مسلم كتاب: الزهد والرقائق جـ ٤ صـ ٢٢٧٨

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي ص ٨٣ طـ مكتبة نزار الباز مكة المكرمة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م

القيادة لمن يملك القدرة على القيام بالمهمة المحددة.

فالله تعالى فضل الناس بعضهم على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ لحكم عظيمة، ومعان جليلة، ففاضل سبحانه بين الناس في المواهب والاستعدادات، وفيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل، وفي مدى إتقانه له، ولولا هذا التفاوت لتعطلت كثير من الأعمال؛ لفقد أهل الكفاية فيها، كما فاضل – عز وجل – بين الناس في الأرزاق، وإذا كانت أحوال الناس وقدراتهم بهذه المثابة من الاختلاف، فان الواجب إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع كل إنسان في المكان الذي يناسبه ويستحقه، ومن ذلك الولاية والقيادة، فيقدم لها من كان من أهل الكفاية فيها، والقدرة على القيام بها على وجهها المطلوب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فان الولاية لها ركنان: القوة، والأمانة، كما قال تعالى: (إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ) (١) والقوة في كل ولاية بحسبها، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، وإلى القدرة على أنواع القتال، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشترى بآياته ثمناً قليلاً، وترك خشية الناس " (٢)

وعلى هذا فإن أسس التعيين للأعمال والوظائف القيادية وغيرها أسس موضوعية، تعود إلى عنصري الكفاية في الأمر، وإلى الأمانة وزكاة النفس، وهذا ما قرره النبي ﷺ وأخذ به، فكان يقدم أبا بكر وعمر على أقاربه، وكان يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره .

٤- التعاهد بالتوجيه والمحاسبة وقت القيادة.

إن التكليف بالقيادة أو تصدُّر الشخص لها لا يعني هذا الاستغناء عن التوجيه

(١) سورة الإسراء من الآية ٢٦.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية – ابن تيمية صـ ٢٥ باختصار طـ دار المعرفة.

والتربية والتسديد، فلقد كان منهج النبيﷺ مع صحابته في توليتهم للقيادة أن يعلمهم ما ينفعهم قبل القيادة والتسديد لهم أثناءها، فهذا أسامة بن زيدﷺ يبعثه رسول اللهﷺإلى قتال قوم فيقول أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْتُ كَانَ مُتَعَوِّذًا فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ " (١)

لما كان المرء لا يسلم في أقواله وتصرفاته من خطأ أو تقصير، كان في المحاسبة استدراك لما يقع من ذلك، وانتهاء عن مقارفة مثله في المستقبل.

والمرء أياً كان موقعه، ومهما بلغت منزلته مطالب بمحاسبة نفسه والنظر فيما تقدم من أفعاله، والمحاسبة ركن ركين في معاملة القادة ورعايتهم، لأنهم قائمون على أمور الناس، ومتصرفون في شؤونهم، ولذا كان لا بد من محاسبتهم، والوقوف على أعمالهم وسياستهم فيمن تحت أيديهم، والتأكد من قيامهم بالواجب، وأدائهم للأمانة، وسلامتهم من الظلم والتجاوز.

والقائد متى أيقن بالمتابعة من ولي الأمر، والمحاسبة له على الأعمال والتصرفات، أوجب له ذلك الاجتهاد في عمله، والنصح فيه، وتوخي العدل، والتباعد عن الظلم، وأداء الأمانة فيما استرعى.

والمحاسبة سنة ماضية عن الرسول ﷺ فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتَبِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺأسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة جـ ٤ صـ ١٥٥٥، ومسلم، كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله جـ ١ صـ ٩٦.

تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا..." (١)

٥- التربية على عدم التعلق بطلب الولاية أو الحرص عليها.

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ قَوْمِي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: أَمِّرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَهُ فَقَالَ: " إِنَّا لَا نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ وَلَا مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ " (٢)

وكانﷺ يربي أصحابة على التعلق بما عند الله " فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء، بل كانوا يتدافعون في قبولها ويتحرجون من تقلدها، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعياً وراءها، فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغنماً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد، بل عدوه أمانة في عنقهم وامتحاناً من الله، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل " (٣)

وهذه التربية تراعي طبيعة البشر في التعلق بالمنصب والافتتان به، فإذا تصدر لها من هو غير مؤهل لها كانت فتنة علية وعلى من تأمر عليهم، وكم زلت في هذا الباب من أقدام.

إن القيادة مع ما تتضمنه من تبعة وتكليف، فيها عز لصاحبها و شرف ورفعة، ولذا يطمع فيها مريد العلو في الأرض، ويسعى للظفر بها الحريص على نيل الشهوات والملاذ في كثير من الأحيان.

وقد بين النبي ﷺ أن الرغبة عن القيادة والولاية، والزهد فيها دليل على شعور يقظ بخطرها، وتقدير لتبعاتها، وحقيق بمن كان بهذه المثابة أن يقوم بشؤونها ويحكم

(١) أخرجه البخاري كتاب الحيل باب احتيال العامل ليهدى له جـ ٦ صـ ٢٥٥٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأحكام باب ما يكره من الحرص على الإمارة جت ٦ صـ ٢٦١٤، ومسلم كتاب: الإمارة باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها جـ ٣ صـ ١٤٥٤.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي ص ٨٣.

أمرها إن كلف بها، وثمة معنى آخر للنهي عن طلب الإمارة أو الحرص عليها، وهو أن من طلبها أو حرص عليها ثم قصر فيها كان كمن أوجب على نفسه ما لا يجب عليه، فقصر فيه فكان مستحقاً للذم والعقاب، أما من أتته من غير مسألة ولا حرص، فعمل فيها وسعه، وبذل جهده، فمعذور فيما قد يقع من قصور، لقيامه بما يستطيع.

على أنه يجوز استعمال الرجل وتوليته بعد سؤاله إذا كان في ذلك مصلحة، كما أجاب الرسول ﷺ طلب زياد بن الحارث الصدائي عندما سأل الرسول ﷺ أن يستعمله على قومه، فأجابه إلى ذلك؛ لأنه كان مطاعاً فيهم وفي هذا يقول العلامة ابن القيم: " وفيها: جوازُ تأمير الإمام وتوليته لمن سأله ذلك إذا رآه كفئاً، ولا يكون سؤاله مانعاً من توليته، ولا يُناقض هذا قوله فى الحديث الآخر: (إنَّا لَنْ نُوَلِّىَ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ) فإن الصُّدائى إنما سأله أن يؤمِّره على قومه خاصة، وكان مطاعاً فيهم، محبَّباً إليهم، وكان مقصودُه إصلاحَهم، ودُعاءهم إلى الإسلام، فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومِه في توليته، فأجابه إليها، ورأى أن ذلك السائل إنما سأله الولاية لحظِّ نفسه ومصلحته هو، فمنعه منها، فولَّى للمصلحة، ومنع للمصلحة، فكانت توليتُه لله، ومنعه لله " [1]

وقد استدل بعض العلماء على جواز طلب الإمارة إذا علم أنه لا يقوم أحد مقامه في العدل والإصلاح، ورأى أن ذلك متعينا عليه، بفعل يوسف- عليه السلام- عندما طلب الولاية من ملك مصر ، كما قال تعالى على لسانه: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) [2]

٦- التجاوز عن الخطأ الصغير أمام ما قدموه من الإنجازات الكبيرة.

في الصحيح عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ

(١) زاد المعاد – ابن القيم جـ ٣ صـ ٦٦٨.

(٢) سورة يوسف من الآية ٥٥.

فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَأْنَا صَبَأْنَا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ "[1]

قولهم (صبأنا) يقصدون بذلك أنهم خرجوا من دين آبائهم ودخلوا في دين الإسلام، فإن الكفرة كانوا يدعون المسلم يومئذ بالصابئين، ولكن لما كان اللفظ غير صريح في الإسلام جوز خالد قتلهم، وجعل خالد بعضهم قتلى وبعضهم أسرى، ومع هذا الخطأ الذي وقع فيه خالد- عن غير عمد- وتبرأ منه رسول الله ﷺ لم يعزله النبي ﷺ عن القيادة.

٧- رعاية القادة الموهوبين وتشجيعهم:

قد اكتشف النبي ﷺ القدرات والإمكانات للصحابة ثم قدّرها واستغلها الاستغلال الأمثل لتنمية المجتمع، فالقائد لا يقتصر على الإشراف؛ وإنما يكتشف بنفسه القدرات والمواهب؛ ثم يضع كل فرد في المكان المناسب، ثم يشجع هذه المواهب، مما يبث فيهم الحماس ويشجعهم على إنجاز المهام على أكمل وجه.

وللمسلمين في حياة الرسول ﷺ الأسوة الحسنة في كل نواحي الحياة على وجه الخصوص في قيادة الآخرين على الأسس السليمة التي رسخها الإسلام، فقد كان ﷺ حريصاً على رعاية من يثبتون كفاءتهم ومن تظهر مواهبهم في القيادة؛ وقد كان لرسول الله ﷺ أكبر الأثر في توجيه صحابته – رضوان الله عليهم- وتحفيزهم على العمل بكفاءة، ويظهر هذا من خلال ذكر الأوصاف المميزة لكل صحابي، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة جـ ٤ صـ ١٥٧٧.

اللَّهُ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ " (١)

٨- التفويض الفعال وتوزيع المسؤوليات.

والمراد بالتفويض منح القادة ونحوهم قدراً من الصلاحيات، ومن الحرية في التصرف بما تحت أيديهم، دون الحاجة إلى إذن ولي الأمر، ولقد أدرك النبي ﷺ أهمية هذا الأمر، ومن ثم أوجد لكل طاقة ما يناسبها من عمل، ووزع المسؤوليات، وفرض المهام ومنح أجزاء متساوية من المسؤولية والسلطة لأصحابه- رضي الله عنهم – والتدريب على اتخاذ القرارات المناسبة في الأوقات المناسبة، وهذا له دور في تحمل المسئولية ومواجهة الأزمات التي قد تطرأ على المجتمع، ففي عهده ﷺ تولى بعض الصحابة أعمالاً بأمر منه ﷺ وأظهروا نجاحاً باهراً " إن هذه الحرية التي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد ، أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء الجميع" (٢)

والأخذ بمبدأ التفويض في الأمور من الأهمية بمكان، وذلك لعدم قدرة ولي الأمر القيام بكافة الأمور بنفسه، كما أن في التفويض ترك لحرية التصرف والاجتهاد، وتنويع للآراء والتجارب، وسرعة في إنجاز الأعمال، وهذا التفويض من ولي

(١) أخرجه الترمذي كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي وأبي عبيدة بن الجراح – رضي الله عنهم وقال: هذا حديث حسن صحيح جـ ٦ صـ ٦٦٥ طـ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – د/ علي محمد محمد الصلابي صـ ٢٠٤.

الأمر لمن دونه من الولاة والقادة لا ينفي بقاء المسؤولية عليه، ولزوم متابعته لعماله ومراقبتهم ومحاسبتهم.

أزمة المسلمين المعاصرة في عدم تفعيل تأهيل القيادات:

يعيش الكثير من المسلمين اليوم أزمة تخلف مريرة في كل شيء، فما عادوا يقودون الأمم، ولا يوجد عندهم مقومات قيادة الأمم؛ بالرغم من وجود المنهج الصافي المتمثل في القرآن والسنة!

إن من المبادئ التي تستخلص من منهج النبي ﷺ في صناعة الشخصية القيادية تؤكد أن القيادة أمانة ورسالة ، وأن إعداد الرجال ليكونوا قادة من أسمى مهام القيادة ، وأن قيمة أية قيادة تقاس بمقدار ما صنعت وقدمت لأمتها من رجال صالحين لتولي القيادة، فيقرر ﷺ أن القائد الذي يريده الإسلام هو القائد المعلم الذي يدرك مسئوليته نحو أمته فيجعل على رأس اهتماماته إعدادهم للقيادة لمواجهة ما قد يعرض من أزمات ، وتعهدهم بالتدريب والتوجيه ، ومن ذلك أن يفوض إليهم بعض الصلاحيات ، ويعهد إليهم ببعض المهام ، ويسند إليهم القيادة تحت رعايته وإشرافه.

أما القائد الذي لا يرضى عنه الإسلام فهو القائد السلبي الذي لا تصل به قدراته أو إيمانه وإدراكه لمسئوليته إلى حد السعي إلى إعداد غيره للقيادة ، ومن هذا النمط من القيادة من يركز كل الأمور في يده ، ويحسب أن من صالحه أن يقال عنه: إن الأمور تختل إذا غاب عن قيادته ، وقد ينطوي هذا السلوك على سوء النية والحقد وكراهية النجاح لغيره فيتضاعف ضرره.

فالقائد المسلم صاحب رسالة ، ويدرك تمام الإدراك أن قيامه ببناء القادة من رجاله من أسمى واجباته ، وأمانة في عنقه ، فنراه يقبل على أداء الواجب وعلى الوفاء بالأمانة بكل حماسة وإخلاص.

ولقد كان النبي ﷺ المعلم والمربي الذي تنزل عليه الوحي برسالة الإسلام ليبلغها

للناس ، وصاحب المدرسة التي تخرج منها قادة أمم ، وعباقرة حروب ، ورجال صلح ، وعلماء فلسفة ، ورواد حضارة حملوا مشاعل الحرية والنور والعلم للإنسانية كلها " كان الرسول ﷺ يعلّم ويربي أصحابه لكي يعلموا ويربوا الناس على المنهج الرباني، فتعلم الصحابة من رسول الله ﷺ منهج التعليم، ومنهج التربية، ومنهج الدعوة، ومنهج القيادة للأمة من خلال ما تسمع وما تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع ﷺ أن يعد الجيل إعداداً كاملاً، ومؤهلاً لقيادة البشرية، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التربية القرآنية، والتربية النبوية إلى كل صقع، وأصبحوا شهداء على الناس " [1]

فأزمة المسلمين في الواقع المعاصر تنبع من عدم استشعار ثقل القيادة كما استشعرها عظماء الإسلام، وبفقد استشعار ثقل القيادة جاء حب المناصب والزعامات، والتطاحن من أجلها؛ فتقدم غيرُ ذوي الكفاءة على الكفء.

(١) المرجع السابق صـ ٢٨٦.

المبحث الرابع

نماذج للأزمات الاجتماعية في العهد النبوي والمنهج النبوي في مواجهتها

أولاً: دور اليهود والمنافقين في إثارة الأزمات.

لما عَلِم أعداء الإسلام أنهم لا يستطيعون النيل من الإسلام والمسلمين نذروا أنفسهم لإثارة الأزمات في داخل المجتمع الإسلامي، وكان الدور الأبرز في ذلك لليهود والمنافقين، أما اليهود فقد كانت موادعة النبي ﷺ لهم تهدف إلى توفير الأمن والسلام، وجلب الخير للبشرية كلها، وأن تكون المدينة وما حولها في وفاق دائم، ويعيش الناس في بيئة يسودها الصفح والتسامح، بعيداً عن النعرة القبلية والنزعة العصبية تحت سقف الدولة الإسلامية، وضمنت المعاهدة لليهود- كما أسلفت- مطلق الحرية في الدين والمال ولم يفكر النبي ﷺ يوما في إبعادهم، أو طردهم من المدينة، أو مصادرة أموالهم وممتلكاتهم، إلا أن اليهود اختاروا النقض على الوفاء، والخيانة على الالتزام، وأبعد من ذلك صاروا عوناً لعبدة الأوثان في محاربة الدعوة ومعاداة الإسلام " ولم يتركوا فرصة للإيقاع بالمسلمين والتآمر عليهم إلا انتهزوها، فكانوا بحق عقبة كئوداً في طريق الدعوة، وازداد غيظهم واشتد حسدهم، لما رأوا الأمور تستقر، والإسلام ينموا ويتسارع، فتحركت كوامن الشر في نفوسهم " [1]

ودفعهم حقدهم وحسدهم إلى امتطاء أي وسيلة يرونها ناجعة في الإساءة لله ومحاربة رسوله ﷺ والكيد لدعوته "فكان اليهود يسعون إلى تقطيع أواصر المحبة بين المسلمين بإثارة الفتن الداخلية، وإحياء الشعارات الجاهلية، وإذكاء النّعرات الإقليمية، والدعوات القومية والقبلية؛ لإحداث الوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتحابين"[2]

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية – محمد منير الغضبان صـ ١٦٦ طـ الأولى دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – د/ علي محمد محمد الصلابي صـ ٣٣٥.

أما المنافقون فقد كان لحركتهم بُعد اجتماعي يرجع إلى طبيعة المجتمع الذي بعث فيه النبي ﷺ فهو – كما سبق أن بينت– مجتمع قبلي قائم على التسيب والانفلات، متعصب للقبيلة خاضع لأوامر مشايخها، منقاد لمواقفها والتي تخدم مصلحتها، وتحرص على سيادتها بين القبائل الأخرى.

ولما جاء الإسلام يدعو إلى الانضباط والتزام النظام، ويحارب الفوضى والانفلات، وجد العربي في هذه الدعوة خروجاً على تقاليده وأعرافه، وتخلياً على ولائه لقبيلته، فضلا عن دعوته إلى الانصهار داخل مجتمع واحد شامل، تتلاشى فيه الولاءات المتعددة، والعصبيات المختلفة، ويخضع فيه الجميع لسلطة واحدة، يحكمها دستور واحد، من مشرع واحد هو الله تعالى " [1]

وبقي الإسلام بسبب هذه الدعوة، يحارب الجاهلية ردحا من الزمن، ويكافح لتطويعها وإلغائها، وأوجد هذا الوضع مقاومة وثنية صريحة لدعوة الإسلام، كما قاد إلى حركة نفاق تمكنت من اختراق صفوف المسلمين، وأصبحت حركة الوثنية بزعامة قريش في مكة، تشترك مع حركة النفاق بزعامة عبد الله بن أبي ابن سلول[2] في المدينة في العداء للإسلام ومحاربة أهله؛ إلا أنهما تختلفان في أسلوب المواجهة؛ تماشياً مع القوة والضعف، فعداء قريش ظاهر في مكة، وهذا راجع لما تتمتع به من قوة وشوكة، أما عداء النفاق في المدينة فكان مستتراً؛ لأنه كان ضعيفا أمام قوة المسلمين، لهذا السبب اختار ابن أبي بن سلول النفاق أسلوبا في محاربة الدعوة،

(١) دراسة في السيرة – عماد الدين خليل صـ ٣٦٤ طـ ١٠ مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

(٢) عبد الله بن أبي بن سلول الأنصاري، من بني عوف بن الخزرج، وسلول امرأة من خزاعة، وهي أم أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وكان اسمه الحباب فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وكان رأس المنافقين، ومن تولى كبر الإفك في عائشة – رضي الله عنها– وكانت الخزرج قد اجتمعت على أن يتوجوه ويسندوا إليه أمرهم قبل مبعث النبي ﷺفلما جاء الله بالإسلام أخذته العزة، ولم يخلص الإسلام، وأظهر النفاق حسداً وبغياً" الوافي بالوفيات – صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي جـ ٥ صـ ٣٤٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بدليل أنه لما حقق المسلمون انتصاراً حاسماً في بدر رأى هو وأصحابه أنه لا مفر لهم من اعتناق الدين الجديد نفاقاً، مما يتيح لهم التسرب في صفوف المسلمين للتنفيس عن أحقادهم، بمحاولتهم تفكيك المجتمع الإسلامي، ومحاربة دعوته، وبهذا الأسلوب أصبح المنافقون يعيشون في صفوف المسلمين يشاركونهم حياتهم ويجالسونهم مجالسهم، ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وعملوا بشتى الطرق على تفتيت المجتمع الإسلامي بإثارة الأزمات داخله، وقد بين الإمام ابن كثير أن بداية ظهور النفاق في المدينة وأنه لم يكن بمكة فقال: " وإنما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُستَكْرَها، وهو في الباطن مؤمن، فلمَّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كانﷺ وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان رأسا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرَهًا، بل يهاجر ويترك

ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة " [1]

ثانياً: أزمات أثارها اليهود.

أزمة تفريق وحدة الأنصار بتهييج العداوات القديمة.

" كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية؛ لأنهم يجيدون التعامل في المال، وكل من يريد مالاً يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا، وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمي؛ لأنهم يعلمون الكتاب، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا، وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود هو خبرتهم بالحرب؛ فلهم قلاع وحصون، هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز: المال يحقق الزعامة الاقتصادية، والعلم بالكتاب وهو تفوق علمي، ثم خبرتهم بفنون الحرب، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه، مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج، والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التي يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين، ولما جاء الإسلام وحّد الرسول ﷺ بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع من اليهود التفوق الاقتصادي. وجاء الإسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية، وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء في بدر، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة، لذلك أرادوا أن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجيء الإسلام، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها " [2]

وذلك أن حاقدا ماكرا من اليهود، يدعى شاس بن قيس، قد تفتق ذهنه لحيلة ماكرة، لتشتيت وحدة الأنصار، لما رآهم يوما وقد ضمهم مجلس واحد، وهم يتحدثون في

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير جـ ١ صـ ١٧٧.

(٢) تفسير الشعراوي – الشيخ الشعراوي صـ ١١٠٨ طـ دار أخبار اليوم.

مودة وأخوة، بعد أن كانوا بالأمس أعداء متحاربين، فغاظه هذا المشهد الملتئم، فعزم على تمزيق الوحدة المتآلفة، وتفريق القلوب المتحابة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة [1] (الأوس والخزرج) بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر شابا من اليهود كان معه أن يذكرهم بيوم بعاث، وما كان فيه من قتل ودماء، وما تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل فتكلم القوم وتفاخروا، وأشعلها الشيطان فتنة هوجاء، حتى قال أحدهم للآخر: إن شئتم رددتها- أي الحرب- الآن جذعه، وغضب الفريقان وتنادوا : السلاح السلاح، موعدكم الحرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به من قلوبكم فعرفوا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس " [2]

وقد أنزل الله في هذه الأزمة قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) [3]

يقول القرطبي في سبب نزول الآية: " نزلت في يهودي أراد تجديد الفتنة بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بالنبي ﷺ فجلس بينهم وأنشدهم شعراً قاله أحد

(١) قيلة هي أم الأوس والخزرج، قال ابن حزم في نسب الأنصار: " وهم من ولد ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، فولد ثعلبة بن عمرو: حارثة. فولد حارثة بن ثعلبة: الأوس، والخزرج، أمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء " جمهرة أنساب العرب – أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي جـ ٢ صـ ٣٣٢ط الثالثة دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣ م.

(٢) السيرة النبوية- ابن هشام جـ ٣ صـ ٩٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٠.

الحيَّين في حربهم، فقال الحي الآخر: قد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاء كما كانت، فنادى هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج؛ فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية؛ فجاء النبي ﷺ حتى وقف بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون؛ عن عكرمة وابن زيد وابن عباس – رضي الله عنهم- والذي فعل ذلك شاس بن قيس اليهودي، دس على الأوس والخزرج من يذكرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبي ﷺ أتاهم وذكرهم، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم؛ فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع النبي ﷺ سامعين مطيعين؛ فأنزل الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) يعني الأوس والخزرج (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) يعني شاساً وأصحابه (يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) قال جابر بن عبد الله ﷺ: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا؛ فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم " (١)

المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة.

التذكير برابطة العقيدة.

كان فقه الدعوة من النبي ﷺ حاضراً، حيث ذكرهم ﷺ برابطة العقيدة، كأقوى محرك للمسلمين، فقد اعتمد النبي ﷺ في مواجهة هذه الأزمة على التذكير بآصرة العقيدة التي تربط بين الأوس والخزرج، وخوفهم من العودة إلى الجاهلية فقال: (يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله

(١) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي جـ ٤ صـ ١٥٥ طـ الثانية دار الكتب المصرية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم)

ولما ذكرهم بهذا أفاق المسلمون من غضبهم، وعلموا أنها نزغة شيطانية، وكيد من عدوهم، وألقوا السلاح سامعين مطيعين، وبكوا ندما، وعانق بعضهم بعضا.

" لقد كانت العصبية القبلية بين الأوس والخزرج قبل الإسلام معول هدم وتدمير يهدد القبيلتين بأسوأ مصير، وكان اليهود ينتهزون الفرصة فيشعلون النار كلما خمدت، ويحركون الفتنة كلما همدت، لينالوا من العرب، ويقيموا على أنقاض هذا الضعف قوة لهم، وفي وسط هذا الشر المطبق والفتن المتكاثفة، ومن خلال هذا الضباب المتراكم لاح بريق الأمل، وأقبل الحق، وجاء النبي ﷺ فقضى على الفرقة وجمع الشتات، وأحيا الله به القلوب الموات " (١)

فبناء الشخصية الإسلامية على العقيدة يخرج للبشرية نمطاً فريداً من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البشر في أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم الاجتماعية، وتكون الآصرة الوحيدة في حياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها، وهي وحدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها.

فما أحوج المسلمون في العصر الحاضر إلى مثل هذا الغرس الطيب لينشأ جيل فريد في تصوره الإسلامي، وسلوكه العملي في واقع الحياة، لانتشال شباب الأمة الإسلامية من وهدة الضلال إلى قمة العقيدة الإسلامية واستعلائها، يقول الأستاذ سيد قطب: " جاء المنهج الرباني للتربية، جاء ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، جاء ليخرج العرب- ويخرج البشرية كلها- من حمية الجاهلية، ونعرة العصبية، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء..... ويظهر سبب ضخم

(١) القول المبين في سيرة سيد المرسلين – محمد الطيب النجار صـ ٢٠٠ طـ دار الندوة الجديدة بيروت.

واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام! وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله.. لا راية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية البيت، ولا راية الجنس، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام " (١)

وبهذا المنهج حول النبي ﷺ العصبية القبلية في نفوس الأوس والخزرج إلى وجهة كريمة هي الغيرة المحمودة والتنافس الشريف الذي يسعى لإعلاء كلمة الإسلام، والقضاء على أعدائه، وهذا أجَلّ هدف وأنبل غاية فأصبح الأوس والخزرج يتجهون إلى هدف واحد هو إرضاء الله ورسوله ﷺ.

ثالثاً: أزمات أثارها المنافقون.

بعدما خابت آمال المنافقين في هزيمة المسلمين، وبعد أن فشلت محاولاتهم التخذيلية، رأى المنافقون أن يبحثوا عن أسباب أخرى؛ لضرب الجبهة الداخلية للمجتمع الإسلامي محاولين تفكيكها؛ بنشر الفوضى وبث الفتن فيها، وإلصاق الشائعات الهدامة بها، فأطلق المنافقون بقيادة زعيمهم ابن سلول في أعقاب غزوة بني المصطلق سهمين فتّاكين باتجاه قلب المجتمع المسلم، وأثاروا أزمتين كادتا أن تعصفا بوحدته، وتشغلا المسلمين بأنفسهم ومشاكلهم عن بناء دولتهم الجديدة ونشر الدعوة.

النموذج الأول: إثارة العصبية الجاهلية بين أفراد المجتمع النبوي.

عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب جـ ٦ صـ ٣٣٤٨ طـ دار الشروق – القاهرة.

الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: " مَا هَذَا " فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ " قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " (١)

وقد ذكر أهل السير هذه الأزمة التي وقعت إثناء غزوة بني المصطلق وقت نزول الناس على ماء يقال له المريسيع، وتفاصيل الأزمة كما يلي: بينما الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب ﷺ أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجُهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم (٢)غلام حدث، فقال: أوَقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلاّ كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قَوْلُهُ (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) جـ ٤ صـ ١٨٦٣، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما جـ ٤ صـ ١٩٩٨.

(٢) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج مختلف في كنيته قيل أبو عمر وقيل أبو عامر واستصغر يوم أحد وأول مشاهده الخندق وقيل المريسيع وغزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة ثبت ذلك في الصحيح، وله قصة في نزول سورة المنافقين في الصحيح، وشهد صفين مع علي، ومات بالكوفة أيام المختار سنة ست وستين، وقيل سنة ثمان وستين " الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر جـ ٢ صـ ٥٨٩ طـ الأولى دار الجيل – بيروت١٤١٢هـ.

والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم؛ أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب- رضي الله عنه – فقال: مُرْ به عبّاد من بشر فليقتله فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس" (١)

يقول ابن هشام: " وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، فلما سار رسول الله ﷺ لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي؟ قال: وما قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبت ملكه، ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبي ومن كان على مثل أمره،

(١) السيرة النبوية – محمد بن إسحاق جـ ٢ صـ ٤٤٢، السيرة النبوية – ابن هشام جـ ٤ صـ ٢٥٣، البداية والنهاية – ابن كثير جـ ٢ صـ ١٧٠.

فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه " (١)

وكان عبد الله بن أبي يزرع الفتنة، ويثبتها بين من يجالسه من المنافقين في هذه الغزوة، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَئِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَتَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ " (٢)

تلك أزمة نشأت بفعل هذا المنافق، ووجه كون هذه الحادثة أزمة يظهر في خطر الاقتتال بين المسلمين، فقد كانت العصبية على أشدها بين الناس كلٌ يريد أن ينتصر من الآخر، ويشعل ذلك ويقويه المنافقون ومن خلفهم قائدهم عبد الله بن أبي، كذلك يظهر خطر هذه الأزمة في مكانة عبد الله بن أبي في قومه، فمع كونه رأس الأزمة إلا أنه كان يُسمع له من بعض المسلمين، وهذا ما بينه أسيد بن حضير عندما قال: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبت ملكه.

المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة:

ظهر المنهج النبوي جلياً في التصدي لمثل هذه الأزمات المفتعلة من قبل أعداء الإسلام، وكان للصحابة الكرام- بصدقهم وإخلاصهم وحبهم لله وللرسول ﷺ الذي رباهم على القيادة لمواجهة الأزمات – دور في التصدي لمثل هذه الأزمات أيضاً، وتأتي مواجهة النبي ﷺ لهذه الأزمة بما يلي:

(١) السيرة النبوية – ابن هشام جـ ٤ صـ ٢٥٤.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة المنافقون جـ ٤ صـ ١٨٥٩.

أولاً: معالجة أسباب الأزمة.

قد كانت شرارة هذه الأزمة هي تلك العصبية الممقوتة، وهي التي تجعل المشتركين فيها يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، فعندما تخاصم المهاجري مع الأنصاري، قال: الأنصاري: ياللأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، مع أن هذه الأوصاف أوصاف مبنية على الخير إلا أنها استخدمت في هذا الوقت بطريقة العصبية الممقوتة فقال النبي ﷺ: (دعوها فإنها منتنة)

عالج النبي ﷺ هذه الأزمة وهي في مهدها بحيث تلافى هذه الظاهرة مباشرة وبأقوى ما يمكن، فدعاهم ﷺ إلى الصلح، فأذعنوا، وتم الصلح بين الفريقين وتخلى سنان بن وبر- رضي الله عنه -عن حقه وكان قد أعتدي عليه، وحبطت الفتنة في مهدها، وبهذا قضى النبي ﷺ على أسباب الأزمة وواجهها.

وفي هذا درس بليغ له دلالته في الوقع المعاصر على الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر أن تعيه، ألا وهو إمكانية وقوع الخطأ، ولكن يجب عدم الاستمرار فيه، ولا تركه دون حلٍ حتى يستفحل ويعسر تطويقه وحلّه إلاّ بشق النفس، بل قد يصل الأمر إلى أن العجز كل العجز عن إيجاد الحلول لإنهاء الأزمة، فلا غرابة أن تتحرك في أي بلد مسلم أو في المجتمع الإسلامي نوازع الجاهلية ونزاعاتها وتثور بعد كمون طويل، ومن الممكن أن تؤدي إلى حمل السلاح، فمن الواجب على المسلم إن يدرك خطورة الموقف وكيفية علاجه بأسرع وقت ممكن، وألا يدب اليأس في النفوس، وألا تحبط الأماني عندما نرى مثل هذه الظواهر، وهنا تظهر حكمة النبيﷺ وحُنْكته في إدارة هذه الأمور والتصدي لها، وكذلك يظهر أثر الإيمان وقوة اليقين والثبات عند الصحابة ويظهر صدقهم وإخلاصهم.

دور أفراد المجتمع في إحباط خطط مثيرو الأزمات.

من الأمور التي ظهرت في هذه الأزمة الوعي المتميز لزيد بن أرقم- رضي الله عنه- في صحة سماعه لحديث عبد الله بن أُبي ونقله إلى النبي ﷺ الذي كان سبباً

في إحباط خطة رأس المنافقين، لهذا يجب على المسلم في واقعنا المعاصر التي تحاك فيه المؤامرات للنيل من وحدة المجتمع، أن يكون حريصاً وواعياً وراصداً لتحركات أهل الباطل ودسائسهم، وما يبيّتون للمسلمين من تدابير الإهلاك والمحق، ويتصرف بحكمة ولا يتصرف تصرفاً خاصاً يمكن أن يؤدي إلى نتائج سلبية تضرّ بالمصلحة العامة، لهذا يجب على المربين أن يجتهدوا في تربية الشباب على الوعي واليقظة وكيفية مواجهة مثل هذه الأمور، وأن يسلكوا سلوك زيد بن أرقم- رضي الله عنه – الذي حسم معركة كاملة ضد المنافقين ينبغي أن تحسم في الوقت الحاضر.

ثانياً: التثبت والتحقق أثناء الأزمة.

يأتي التصرف القيادي المتمثل في شخص النبي ﷺ أمام هذه المواقف كلها دوراً بارزاً متميزاً في مواجهة الأزمة ومعالجتها معالجة تتصف بالحكمة والدقة والقرارات الحاسمة في أحلك المواقف وأصعبها، فلا بد من التثبت والتحقيق في ملابسات الأزمة وأخبارها قبل معالجتها وإيجاد حلولها، لأن عدم التثبت قد يزيد الأزمة سوءاً ويعقد الأمور أكثر وأكثر.

لهذا يلاحظ أن النبي ﷺ أخذ بنظر الاعتبار ثلاثة احتمالات قبل أن يتبنى هذا القول ويبني عليه:

الاحتمال الأول: أن يكون الناقل مغرضاً أو صاحب هوى كقول النبي ﷺ: لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت، فقال زيد بن أرقم- رضي الله عنه- : لا والله يا رسول الله لقد سمعت منه.

فمع أن عبد الله بن أبي هو رأس النفاق وأكبر أعلامه، فلم يقبل النبي ﷺ القالة فيه مباشرة، وأحب أن يتأكد من صدق الناقل أنه ليس له غرض أو مصلحة أو هوى.

الاحتمال الثاني: أن يكون ناقل الكلام غير دقيق في نقله كقول النبي ﷺ: لعله أخطأ سمعك.

الاحتمال الثالث: أن يكون الفهم خاطئاً للكلام، كقول النبي ﷺ: فلعله شُبِّه عليك؟ قال: لا والله لقد سمعت منه يا رسول الله [1]

وبهذا أراد ﷺ أن يتأكد من صدق القائل لاسيما في عدة أمور:

الأول: أنه ليس له غرض أو مصلحة أو هوى ضد المنقول عنه.

الثاني: ألا يكون النقل خاطئاً فيؤدي إلى زيادة أو نقصان في الكلام يُغيِّر المعنى، ولا يصل إلى هذا المدى من الخطر، وبالتالي فيتهم القائل بشيء لا أصل له أو زِيد عليه فغيّر معناه.

الثالث: ألا يكون قد فهم الكلام على غير قصده أو غير معناه، وبالتالي تتأزم الأمور لسوء تفاهم أو سوء فهم من طرف واحد ثم تبنى الأحكام كلها على ضوء هذا الفهم السيئ، ويتصدع الصف نتيجة أوهام لا حقائق... لهذا يجب أن يكون المنهج النبوي هو المنار الذي يحتذى به في مثل هذه الوقائع وغيرها تجنباً للوقوع في الأخطاء " [2]

ثالثاً: عدم إعطاء الفرصة للعدو الخارجي بالتشهير بالصف الإسلامي:

لم يقدم النبي ﷺ على قتل عبد الله بن أبي سلول عندما طلب منه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه – فقال: مُر به عبّاد بن بشر [3] فليقتله فرفض النبي ﷺ على الفور ونهاه، وقال: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وبهذا حرص النبي ﷺ على دفع المفسدة الكبرى وهي إدعاء أن النبي ﷺ يقتل أصحابه وهذا مما ينفر الناس من الإسلام، بالمفسدة الصغرى وهي تحمل النبي ﷺ

(١) إمتاع الأسماع – المقريزي جـ ١ صـ ٢٠٨.

(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية – منير محمد الغضبان صـ ٢٦٦، ٢٦٧ بتصرف طـ مكتبة المنار.

(٣) عباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدراً، قال: واستشهد باليمامة وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكان ممن قتل كعب بن الأشرف " الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر جـ ٣ صـ ٦١١.

لغدرات ابن أبي لعلم النبي ﷺ أن لابن أبي أتباعاً وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به لغضب له رجال متحمسون له.

ولقد كان لتسامح النبي ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي كلما أحدث حدثاً بعد ذلك كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ويعرضون قتله على النبي ﷺ ولكنه يأبى ويصفح، فأراد رسول الله ﷺ أن يكشف لعمر – رضي الله عنه- عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: " كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم لقتلته! " !فقال عمر – والله – علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري " [1]

وقرار النبي ﷺ في تلك الأزمة بعدم قتله يرتكز على مدلولات عدة منها:

١- اطمئنان النبي ﷺ إلى أن قومه سوف ينفضون عنه جميعاً، فقد أصبح خطره محدوداً وأمره مفضوحاً للجميع.

٢- يود النبي ﷺ أن لا يفسح له مجالاً للخروج من الصف ثم الانقضاض عليه بحيث يخرج ويتآمر مع اليهود والمشركين، وأسرار الصف عنده وأيُّ ضغط عليه قد يقوده إلى هذا الموقف، أي أن يكون مراقباً وتحركاته محسوبة أمام أعين المسلمين أولى من أن يخرج ويعمل مع غيرهم، فينقل أسرار الجماعة المسلمة إلى عدوها.

٣- عَلِم النبي ﷺ أن عبد الله بن أُبي قد احترق نهائياً بعد نزول (سورة المنافقون) حيث صارت على كل لسان، وما من مسلم يتلو هذه السورة ويبقى عنده أدنى شك في تقييم ابن أُبي أو الثقة به إلاّ إذا كان منافقاً مثل عبد الله بن أُبي.

لهذا نستطيع القول أنّ جبهة المنافقين التي كان يقودها عبد الله بن أُبي قد تصدعت تماماً بعد أن كانت قادرة على تصديع الصف الإسلامي كله فلم يُعد له ناصر أو

(١) السيرة النبوية الصحيحة – أكرم العمري جـ ٢صـ ٢٠٩ طـ الأولى مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

معين وأصبح مكان الإذلال في قومه بعد أن كان في مكان الصدارة، بينما لو قُتل لتحركت الحَميّة الجاهلية من جراء قتله وأحدثت كارثة نتيجة لذلك، وربما يراه البعض من ضعاف الإيمان مظلوماً شهيداً.

لقد بانت الحكمة والمعالجة السديدة من تصرف رسول الله ﷺ لهذا الموقف أن انفض الناس من حول عبد الله بن أُبي بن سلول بعد أن كاد يتوج عليهم ملكاً قبيل مجيء رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة.

وعند التدقيق في ما قاله عبد الله بن أُبي والدافع له وما يوجد في عصرنا الآن من مواقف مشابه لهذا الموقف، لوجدنا قاسماً مشتركاً بين تلك الدوافع لهذه المواقف، وهو أن هناك سبباً حقيقياً يكمن وراء ذلك ألا وهو حب الزعامة لديه الذي قاده إلى هذا الموقع، وأن فقدان المُلك جعله في موقع الحرب لرسول الله ﷺ لهذا يجب على المسلم الواعي أن يتجنب سرطان النفوس وآفة العصر ألا وهي حب الزعامة والرياسة التي تؤدي إلى هلاك الحرث والنسل.

فلجأ النبي ﷺ في التعامل مع المنافقين وزعيمهم إلى الحكمة والتعقل بدل الشدة والعنف؛ حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، وبهذا المنهج اشتهر الرسول بين الناس بأنه حليم وكريم ومسامح، وزاد هذا التعامل في تأليف القلوب وتوحيد الصفوف؛ وفي المقابل ضعف مركز ابن سلول، وصار قومه يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ بعد افتضاح أمره وخبث نيته، وفضح الدوافع النفسية له.

إذن كانت معالجة النبي ﷺ للموقف على جبهات عدة، وهو يود أن يستأصل هذه الظاهرة من الجذور، وهو أحوج ما تحتاجه القيادات الإسلامية في عصرنا الحالي للتأسي به والعمل على منهجه ﷺ.

رابعاً: اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

لمّا علم الرسول ﷺ بالحادث قرر الرحيل فوراً قبل أن يستفحل الأمر، وهذا القرار كان له الأثر البيّن في الحد من انتشار الفتنة، فانطلق بالناس طيلة يومهم حتى

أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مست جنوبهم الأرض أن ناموا من فرط تعبهم، وأنسى التعب فتنة ابن أبيّ، وعادوا إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنائم..... وكان عمل الرسول ﷺ في تحريكه قواته بعد غزوة بني المصطلق، لمّا علم بمحاولة عبد الله بن أبي إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار، واستمرار المسير الشاق لمدة ثلاثين ساعة....ـ كان عمل الرسول ﷺ إبداعاً ممتازاً إذ لولا مسارعته بالحركة مع قواته حتى أنهكها التعب لما استبعدنا نجاح عبد الله بن أبي في فتنته " [١]

أمر ﷺ الجيش بالرحيل، فسار الناس ونال الجيش التعب في نهاية السفر، وذهب الجميع في سبات عميق تفادياً لأي فرصة للخوض في حديث الفتنة، يقول الأستاذ سيد قطب: " تصرف الرسول ﷺ في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم... وأمره بالسير في غير أوان، ومتابعة السير حتى الإعياء، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين: يا للأنصار! يا للمهاجرين! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد اللّه بن أبي بن سلول، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان... " [٢]

وبهذا المنهج النبوي انتهت الأزمة ومرّت دون تفريق أو تمزيق للمجتمع المسلم.

النموذج الثاني: الطعن في النبي ﷺ وأهل بيته (حديث الإفك).

دبّر المنافقون مؤامرة جديدة تضاف إلى مؤامراتهم العديدة للنيل من الدعوة الإسلامية والمسلمين، لكن هذه المرة كانت أكثر دقة في التدبير عُرِفت فيما بعد بحادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في إثارة العصبية الجاهلية، وسعوا إلى إيذاء رسول الله ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسية مريرة من خلال هذه الحادثة

(١) الرسول القائد - محمود خطاب شيت صـ١٣١، ١٤١ طـ الخامسة دار الفكر بيروت ١٣٩٤.

(٢) في ظلال القرآن- سيد قطب جـ ٦ صـ ٣٥٧٨.

التي اختلقوها على أهل بيت رسول الله ﷺ والتي ألمت ببيته الطاهر، هذه الأزمة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من شخص النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار.

وهذه الأزمة تعد من صميم الأزمات الاجتماعية الخطيرة، لأنها تعلقت بأقرب الناس إلى الرسول ﷺ وانتشرت في المجتمع وكانت أطرافها كثيرة، وقد ترتب عليها نتائج خطيرة وأحكام هامة، ونزل فيها قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وحاول المنافقون استغلالها لغرض شق صف المسلمين والنيل من رسول الله ﷺ " هذا الحادث (حادث الإفك) قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل.. شهرا كاملا، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق " [1]

وللوقوف على تفاصيل الحادثة أذكر ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث الإفك في صحيحيهما عن عُتْبَةَ بن مَسْعُودٍ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النبي ﷺ قالت: كان رسول اللَّهِ ﷺ إذا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بين أَزْوَاجِهِ فأيتهن خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها رسول اللَّهِ ﷺ معه قالت عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا في غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فيها سَهْمِي فَخَرَجْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ما أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَكُنْتُ أُحْمَلُ في هَوْدَجِي[2] وَأُنْزَلُ فيه فَسِرْنَا حتى إذا فَرَغَ رسول اللَّهِ ﷺ من غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ ودنونا من الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حين آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حتى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فلما

(١) في ظلال القرآن- سيد قطب جـ ٤ صـ ٢٤٩٥.

(٢) الهودج: " ما تركب فيه المرأة على الجمل وهو كالمحفة عليه قبة " فتح الباري - ابن حجر جـ١ صـ ٢٠٢ط دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ.

قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إلى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارَ[1] قد انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ قالت وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ[2] الذين كَانُوا يرحلون لي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ على بَعِيرِي الذي كنت أَرْكَبُ عليه وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فيه وكان النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لم يَهْبُلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إنما يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ من الطَّعَامِ فلم يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ، حين رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بها منهم دَاعٍ ولا مُجِيبٌ فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الذي كنت فيه وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سيفقدونني فَيَرْجِعُونَ إلي فَبَيْنَا أنا جَالِسَةٌ في مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وكان صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ من وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حين رَآنِي وكان رَآنِي قبل الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حين عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَوَاللَّهِ ما تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ ولا سمعت منه كَلِمَةً غير اسْتِرْجَاعِهِ وَهَوَى حتى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ على يَدِهَا فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حتى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ قالت: فَهَلَكَ فِيَّ من هَلَكَ وكان الذي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ عبد اللَّهِ بن أُبَيِّ بن سَلُولَ....قالت عَائِشَةُ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حين قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ في قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ من ذلك وهو يَرِيبُنِي في وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ من رسول اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أَرَى منه حين أَشْتَكِي إنما يَدْخُلُ عَلَيَّ رسول اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يقول كَيْفَ تِيكُمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيبُنِي ولا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حتى خَرَجْتُ حين نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ مع أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وكان مُتَبَرَّزَنَا وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إلا لَيْلًا إلى لَيْلٍ وَذَلِكَ قبل أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا من بُيُوتِنَا...فَأَقْبَلْتُ أنا وَأُمُّ

(١) الجَزْع بالفتح: الخَرَزُ اليماني الواحدة جَزْعة " النهاية في غريب والأثر - ابن الأثير جـ ١ صـ ٧٤٤.

(٢) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة " لسان العرب - ابن منظور جـ ٧ صـ ٣٠٥مادة (رهـ ط).

مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت أي هنتاه أولم تسمعي ما قال قالت وقلت: وما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك قالت فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال كيف تيكم، فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي قالت وأريد أن استيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها قالت: فقلت سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا قالت، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي، قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي[1] يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه فقال أسامة أهلك ولا نعلم إلا خيرا، وأما علي فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة [2] فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك قالت له بريرة والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر [3] من عبد الله بن أبي وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا

(١) استلبث: هو استفعل من اللبث: الإبطاء والتأخر " النهاية في غريب والأثر – ابن الأثير جـ ٤ صـ ٤٢١ طـ المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٢) مولاة السيدة عائشة – رضي الله عنها – والتي اشترتها من بني كاهل فأعتقتها... والبريرة واحدة البَرير، وهو ثمر الأراك. الروض الأنف – السهيلي جـ٤ صـ ٢٥.

(٣) أي مَن يقوم بعُذري إن كافأته على سُوء صَنيعه فلا يَلُومني " النهاية في غريب الأثر– ابن الأثير جـ ٣ صـ ٤٢٤.

ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو بن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال فقال أبي والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي[1] أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال قالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله

(١) هي أم رومان زينب بنت عامر بن عُويمر بن عبد شمس بن دُهمان رضي الله عنها، وهي من كنانة توفيت على الراجح سنة ست " الإصابة– ابن حجر، جـ ٨ صـ ٢٠٧ ط الأولى دار الجيل – بيروت ١٤١٢ هـ..

ﷺ فقلت وأنا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ من الْقُرْآنِ كَثِيرًا إني والله لقد عَلِمْتُ لقد سَمِعْتُمْ هذا الحديث حتى اسْتَقَرَّ في أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ قلت لَكُمْ إني بَرِيئَةٌ لَا تصدقونني وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي منه بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي فو الله لَا أَجِدُ لي وَلَكُمْ مَثَلًا إلا أَبَا يُوسُفَ حين قال: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ على ما تَصِفُونَ) (١) ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ على فِرَاشِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ وإن اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ والله ما كنت أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ في شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى لَشَأْنِي في نَفْسِي كان أَحْقَرَ من أَنْ يَتَكَلَّمَ الله فِيَّ بِأَمْرٍ، ولكني كنت أَرْجُو أَنْ يَرَى رسول اللَّهِ ﷺ في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله بها فو الله ما رَامَ رسول اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ ولا خَرَجَ أَحَدٌ من أَهْلِ الْبَيْتِ حتى أُنْزِلَ عليه فَأَخَذَهُ ما كان يَأْخُذُهُ من الْبُرَحَاءِ حتى إنه لَيَتَحَدَّرُ منه من الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ وهو في يَوْمٍ شَاتٍ من ثِقَلِ الْقَوْلِ الذي أُنْزِلَ عليه قالت: فَسُرِّيَ عن رسول اللَّهِ ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بها أَنْ قال يا عَائِشَةُ أَمَّا الله فَقَدْ بَرَّأَكِ قالت فقالت لي أُمِّي قُومِي إليه فقلت: والله لَا أَقُومُ إليه فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إلا اللَّهَ عز وجل، قالت: وَأَنْزَلَ الله تَعَالَى:(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...) (٢) الْعَشْرَ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْزَلَ الله هذا في بَرَاءَتِي قال أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وكان يُنْفِقُ على مِسْطَحِ بن أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ منه وَفَقْرِهِ والله لَا أُنْفِقُ على مِسْطَحٍ شيئا أَبَدًا بَعْدَ الذي قال لِعَائِشَةَ ما قال فَأَنْزَلَ الله: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٣) قال أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى والله إني لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لي فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التي كان يُنْفِقُ عليه، وقال والله لَا أَنْزِعُهَا منه أَبَدًا. قالت عَائِشَةُ وكان رسول اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عن أَمْرِي فقال لِزَيْنَبَ مَاذَا

(١) سورة يوسف من الآية ١٨.
(٢) سورة النور الآية ٢٢.
(٣) سورة النور من الآية ١١.

عَلِمْتِ أو رَأَيْتِ فقالت يا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي والله ما عَلِمْتُ إلا خَيْرًا قالت عَائِشَةُ: وَهِيَ التي كانت تُسَامِينِي من أَزْوَاجِ النبي ﷺ فَعَصَمَهَا الله بِالْوَرَعِ قالت: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لها، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ" (١)

المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة:

أولاً: التروي والثقة في الله والإبقاء على العلاقة الزوجية بعد أن هَلَكَ فيها من هَلَكَ.

كانت السيدة عائشة- رضي الله عنها- أحب نساء النبي ﷺ بعد السيدة خديجة- رضي الله عنها- وكان مما اعتاده رسول اللَّهِ ﷺ عليه أنه إذا أَرَادَ سَفَراً أَقْرَعَ بين أَزْوَاجِهِ فأيتهنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها رسول اللَّهِ ﷺ معه، فَأَقْرَعَ بَيْنَهنَّ، فَخَرَجَ فيها سَهْمِ السيدة عائشة وسهم أم سلمة- رضي الله عنهما -

كان ﷺ أفضل الناس علاقة مع أهل بيته، وكان أغيرهم على زوجاته وبناته والناس أجمعين، لكن الذي يتبادر إلى الذهن كيف تصرف النبي ﷺ تجاه هذا الأمر الفظيع، مع أنَّ الإنسان في مثل هذه الحوادث يخرج عن طوره، وتراه لا يحسن التصرف فتراه على الفور يغضب، يتعالى صوته، يبطش بالذي حوله، بل ربما يصل الأمر به إلى قتل الجاني والمجني عليها، وإن كان هذا في حقيقة الأمر مخالفاً للنصوص الشريعة التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، أو ربما يكتفي بطلاق الزوجة قبل أن يتحقق.

لكن لما شاع خبر أهل الإفك في المدينة ووصل إلى النبي ﷺ تجلّت حكمة النبي ﷺ الذي بُعث رحمة للعالمين، وهو- والحالة هذه- الزوج الذي وضع أمام امتحان صعب وتوقيت أصعب، حيث يُطعن في عرض أحب نسائه إلى قلبه، فكيف سيتصرف مع هذا الأمر؟ حيث لم ينزل الوحي لا بالإثبات ولا بالنفي، ولم يتنزل

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب حديث الإفك جـ ٤ صـ ١٥١٧، ومسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف جـ ٤ صـ ٢١٢٩.

بيان أو توضيح أو تفسير لهذا الخبر، بل تأخر وتأخر ما يقارب شهراً، فما كان من النبي ﷺ إلاّ أن تصرف بحكمة في غاية الدقة حتى يتبين له الشأن، وهذا التصرف الحكيم منه ﷺ بينته السيدة عائشة- رضي الله عنها – حين قالت: (فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حين قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ في قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ لا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ من ذلك وهو يَرِيبُنِي في وَجَعِي أَنِّي لا أَعْرِفُ من رسول اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أَرَى منه حين أَشْتَكِي إنما يَدْخُلُ عَلَيَّ رسول اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يقول: كَيْفَ تِيكُمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيبُنِي ولا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حتى خَرَجْتُ حين نَقَهْتُ...)

إذن...لم يعاتبها... لم يعنفها... لم يضربها... لم يطلقها.... بل كان يُبدي لها بعضاً من اللطف وكان يسلم عليها ويسألها عن صحتها.... لكنه ﷺ كان ينتظر من الله تعالى أن يَمُنَّ عليه في كشف افتراء وكذب المدّعين.

ثانياً: التحقق والبيان عن طريق المشورة.

لمّا رأى رسول الله ﷺ أن الوحي قد تأخر كان لا بد له أن يأخذ بالأسباب المادية للخروج من تلك الأزمة، ومنها استشار أهل بيته، فبادر النبي ﷺ على الفور (فَدَعَا رسول اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بن أبي طَالِبٍ ﷺ وَأُسَامَةَ ابن زَيْدٍ ﷺ حين اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا في فِرَاقِ أَهْلِهِ)

فـ (أَمَّا أُسَامَةُ ﷺ فَأَشَارَ على رسول اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ من بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لهم في نَفْسِهِ)، ثم كرر القول مؤكداً: (أَهْلَكَ ولا نَعْلَمُ إلا خَيْرًا).

وجاءت ردود الأفعال كالنور الساطع في الليالي المظلمة التي طالت في تلك الأزمة، فإشارة أسامة بن زيد- رضي الله عنه- بإمساك أم المؤمنين- رضي الله عنها- هو دليل واضح على علمه بعفتها وديانتها، وأن الله لا يجعل حبيبة نبيه وبنت صديقه بالمنزلة التي أنزلها بها أهل الإفك.

وَأَمَّا عَلِيٌّ ﷺ فقال: (يا رَسُولَ اللَّهِ لم يُضَيِّقْ الله عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ)

وكانت إشارة علي ﷺ بفراقها تلويحاً لا تصريحاً لَمّا رأى أن ما قيل مشكوك فيه، فأشار بترك الشك والريبة إلى اليقين، ليتخلص رسول الله ﷺ من الغم الذي لحقه بكلام الناس" (١)

فَدَعَا رسول اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فقال: (أَيْ بَرِيرَةُ هل رَأَيْتِ من شَيْءٍ يَرِيبُكِ قالت له: بَرِيرَةُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ما رأيت عليها أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ أكثر من أنها جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عن عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ)

لقد كانت الجارية بريرة- رضي الله عنها- واثقة كل الوثوق بالله أولاً ثم من سيدتها، وحين سئلت أجابت بالوصف الدقيق الذي يدل على الطهر والنقاء.

ويوضح العلامة ابن القيم الحكمة المبتغاة من أسئلة النبي ﷺ لأهل بيته فيقول: " من تمام الحِكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها وامتحاناً وابتلاء لرسوله، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بها أقواماً، ويضع بها آخرين، واقتضى تمام الامتحان بأن حبس الوحي عن نبيه ﷺ شهراً ليظهر حكمته، ويظهر كمال الوجود، ويزداد الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل وحسن الظن، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، وتظهر سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة منهم إلى الله والذل له، والرجاء له، ولينقطع رجاؤه من المخلوقين، ولهذا وقّتْ هذا المقام حقه، لمّا قال لها أبوها: قومي إليه وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي، ولو أطلع الله رسوله على الفور، لفاتت هذه الأمور والحكم، وأضعافها وأضعاف أضعافها) (٢)

ثالثاً: كشف المؤامرة والمتآمرين من أهل الإفك:

ما إن استوثق النبي ﷺ من أهل بيته حتى بادر في كشف أستار المؤامرة التي خطط

(١) مختصر زاد المعاد – محمد بن عبد الوهاب صـ ٢١ طـ الأولى المكتب الإسلامي.

(٢) زاد المعاد – ابن القيم جـ ٣ صـ ٢٦٢.

لها رأس النفاق عبدالله بن أُبَيّ بن سلول ومن تأثر ظناً بهذه الفرية من المؤمنين الصادقين دون بيّنة، وهذا يشكل نذير خطر على ما يبدو لأن الفرية إذا كانت على نطاق ضيق لا يتعدى صفوف المنافقين فلا خطر فيها لأنّ المسلمين متحصنون منها، ولكن حين تتعدى وتنتقل إلى داخل صفوف المسلمين وتكاد تسري فيه، فتكون كسريان النّار في الهشيم، وهي الأشد خطورة، لذا بادر النبي ﷺ إلى كشف المؤامرة ووأدها في مهدها إذ وقف ﷺ خطيباً بين الحيّين (الأوس والخزرج) ليستعذرهم عن المخطِّط والمدبّر لهذا الإفك المفترى، حيث وصفت السيدة عائشة- رضي الله عنها- الموقف فقالت: (فَقَامَ رسول اللّه ﷺ من يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ من عبد اللّه بن أُبَيّ وهو على الْمِنْبَرِ فقال: يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ من يَعْذِرُنِي من رَجُلٍ قد بَلَغَنِي عنه أَذَاهُ في أَهْلِي واللّه ما عَلِمْتُ على أَهْلِي إلاّ خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلاّ خَيْرًا وما يَدْخُلُ على أَهْلِي إلا مَعِي).

أزمة داخل أزمة:

بعد أن طلب النبي ﷺ العذر في المتآمرين حدث أمر طارئ كاد أن يوقع بالمسلمين أضراراً جسيمة ومخاطر كثيرة لا يحمد عقباها لولا تدخل النبي ﷺ المباشر وفض هذا النزاع الذي نشب نتيجة للمشادة الكلامية بين أفراد من الأوس والخزرج حول من تسبب بالأذى لرسول الله ﷺ وأهل بيته (فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عبد الْأَشْهَلِ، فقال أنا يا رَسُولَ اللّه أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كان من الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَإِنْ كان من إِخْوَانِنَا من الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قالت فَقَامَ رَجُلٌ من الْخَزْرَجِ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ من فَخِذِهِ وهو سَعْدُ بن عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الْخَزْرَجِ قالت: وكان قبل ذلك رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فقال لِسَعْدٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّه لَا تَقْتُلُهُ ولا تَقْدِرُ على قَتْلِهِ وَلَوْ كان من رَهْطِكَ ما أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ وهو بن عَمِّ سَعْدٍ فقال لِسَعْدِ بن عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّه لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عن الْمُنَافِقِينَ قالت: فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حتى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللّه ﷺ قَائِمٌ على

الْمِنْبَرِ قالت: فلم يَزَلْ رسول اللّه ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سَكَتُوا وَسَكَتَ)

ولم يكن ما حدث من مشادة كلامية والتي كادت تتطور إلى معركة كبيرة أمراً طبيعياً، واستطاع النبي ﷺأن يطفئ نار الفتنة التي أوقدها المنافقون، وفض النزاع الذي حصل بين الأوس والخزرج .

رابعاً: الحوار والهدوء والصبر طريق لمواجهة الأزمات.

لقد كان المقصود بالأذى هو رسول الله ﷺ والتي رميت زوجته، ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه، وفّى مقام الصبر حقه، فحمل ﷺ همومه في نفسه ولم يكشف عمّا يكنه قلبه جراء ما سببه له أهل الإفك من معاناة قاسية أشغلته تماماً عن أهل بيته، وتأخر الوحي شهراً كاملاً، ومع انشغاله ﷺ في معالجة هذا الأمر وما آلت إليه تطورات الأحداث جرى حوار هادئ وهادف بين رسول ﷺ والصديقة بنت الصديق وآل أبي بكر- رضي الله عنهم- وهنا موقف له دلالته وهي أنه لا يتوقف الحوار عند المخالفين بل يفتح الحوار مع أصحاب الأزمة أنفسهم، وذلك للبحث عن حل للخروج منها، وعن السبيل الأمثل لمواجهتها.

فقال رسول الله ﷺ للسيدة عائشة- رضي الله عنها- بعد أن تشهد: (أَمَّا بَعْدُ يا عَائِشَةُ إنه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللّهَ وَتُوبِي إليه فإن الْعَبْدَ إذا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عليه... إلى آخر الحوار.

انفراج الأزمة:

جاء الوحي من الله تعالى حيث تنزلت الآيات القرآنية ببراءة السيدة عائشة – رضي الله عنها- ولو قيل: ما الحكمة من ذلك؟ لكان الجواب كما قال العلامة ابن القيم: " إن الله أحب أن تظهر منزلة رسوله عنده وأهل بيته، وأن يتولى بنفسه الدفاع، والمنافحة عنه والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون لرسوله فيه عمل ولا

ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي لذلك الثائر لرسوله وأهل بيته " [1]

وهكذا تتوالى الأزمات واحدة بعد الأخرى، وما تنتهي واحدة من هذه الأزمات حتى تقوم على إثرها أخرى ليبدأ صراع جديدٌ يُراد به شق صف المسلمين وتفكيك وحدتهم والنبيﷺ بين أظهرهم، يواجه تلك الأزمات بمنهجه النبوي المعصوم، ويربي أصحابه الكرام على مواجهة الأزمات التي تعرض للمجتمع بين الفينة والأخرى.

وبهذا المنهج تنتهي أزمة لو تركت لاستفحل الداء وصَعُب العلاج في مجتمع يحاط بالشرك والنفاق من كل صوب وحدب.

مثيرو الأزمات في الواقع المعاصر.

الذي ينعم النظر في حالة المجتمعات في أي ظرف ومكان يجد بدون ريب هذه الفئات كائنة فيها، تلك الفئات التي تعمل على تخريب المجتمع المسلم وتبث فيه الذعر والفوضى، وتأجج فيه نار الفتنة، وقد تتنوع صور هذه الفئات وتختلف، حيث تتمثل تارة في الذين يتخذون الطغاة والظالمين والأعداء أولياء يبتغون عندهم العزة ويساعدونهم على إذلال أمتهم واستعبادها ويخونون مصالح بلادهم وأمنها بسبيل منافعهم أو أحقادهم أو الاثنتين معا، وأخرى في الذين يشيعون الفاحشة بين الناس ويثيرون فيهم الشكوك والهواجس والفزع في أوقات الأزمات ويستهترون بالقيم الأخلاقية والإنسانية والروحية والاجتماعية والأسرية الصالحة المستحبة بسبيل نزواتهم وأهوائهم، ويقصرون في واجبات الإخلاص والتضامن والتعاون والتضحية المتنوعة، ولا يبالون بما يقع على أمتهم من مصائب ومظالم وبغي ونكبات ولا يهتمون إلّا لمصالحهم الخاصة فقط، وفي الواقع المعاصر لا يختلف الوضع عما كان في العهد النبوي بل ربما يزيد، والفرق واضح بين مجتمع يعيش فيه النبي ﷺ

(١) المرجع السابق جـ ٣ صـ ٢٦٢.

وآخر لا يوجد فيه النبيﷺ بنفسه ولا يطبق فيه منهجه المعصوم، وإن كان ما حدث في العهد النبوي نموذج للاقتداء ولأسوة.

رابعاً: أزمات اجتماعية أخرى.

(أزمة اختصاص المهاجرين بالغنائم دون الأنصار بعد غزوة حنين) [1]

لما انتهت غزوة حنين قسم النبي ﷺ غنائم الكفار على من لم يتمكن الإيمان من قلبه، لأنه ما زال طبعهم البشرى فيه محبة المال، فقسم المال فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع على محبته، لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، ولم يعط ﷺ الأنصار لما يعلمه من قوة إيمانهم- مع أنهم هم المستحقون للعطاء لقرب عهدهم بقتال أعداء الدين- فكان ذلك العطاء لقريش سببا لدخولهم في الإسلام وتقوية لقلب من دخل فيه قبل ذلك وحتى يدخل غيرهم بدخولهم، فكان في ذلك مصلحة عظيمة، فالتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل التشجيع في أول الأمر حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوق حلاوته.

وبسبب هذا العطاء تأثر حدثاء الأنصار بحكم طبيعتهم البشرية ، وترددت بينهم مقالة ، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وواجه تلك الأزمة الناشئة في المجتمع بسبب هذه العطايا واختصاص أناس بها دون آخرين ، وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم ، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانيّاً عقليّاً وعاطفيّاً ووجدانياً ما يملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا

(١) كانت غزوة حنين في العاشر من شوال من العام الثامن للهجرة منصرفَ النبي ﷺ من مكة بعد أن منَّ الله عليه بفتحها، وقد انصرف رسول الله من مكة لست خلت من شوال، وكان وصوله إلى حنين في العاشر منه، ودارت هذه الغزوة في موضع يقال له حنين، وهو واد إلى جنب ذي المجاز بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات، وكان سبب هذه الغزوة أن مالكاً بن عوف النضري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وقصدوا محاربة المسلمين، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخرج إليهم" فتح الباري – ابن حجر جـ ٨ صـ ٢٧، زاد المعاد – ابن القيم جـ ٣ صـ ٤٦٥.

التأثر عندما يمر بهذا الحدث العظيم ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ، وَفِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا في قبائل العرب، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ. قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ " قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا مِنْ قَوْمِي. قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ؟ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَدْهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أَتَى سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ " قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. ثُمَّ قَالَ: " أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ: " أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ عَلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءاً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَوَادِيًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا وَوَادِيًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ وَوَادِيَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ اللَّهُمَّ ارْحَمِ

الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ " قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا " (١)

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السن منهم؛ بدليل ما ورد في الصحيحين عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ قَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ... " (٢)

المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة:

أولاً: المبادرة إلى الحل بأسلوب الحوار.

اعتمد النبي ﷺ على الحوار في مواجهة هذه الأزمة الاجتماعية، وكان حواره ﷺ عاطفياً لاسيما وأن الطرف الآخر مقرباً منه ومحبباً إلى نفسه، وكان ﷺ أقدر الناس على إثارة العاطفة الربانية التي تؤثر في المدعوين وتملك قلوبهم، ومن ذلك هذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده جـ ٣ صـ ٧٦ رقم ١١٧٤٨، ط الأولى المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٨٩هـ.وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. قوله (ألم أجدكم ضلالا) بالضم والتشديد جمع ضال والمراد هنا ضلالة الشرك وبالهداية الإيمان قوله (عالة) بالمهملة أي فقراء لا مال لهم والعيلة الفقر قوله(قالوا الله ورسوله أمن) بفتح الهمزة والميم والتشديد أفعل تفضيل من المن " ابن حجر – فتح الباري جـ ٨ صـ ٥١.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير بَاب مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ جـ ٣ صـ ١١٤٧، مسلم كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم جـ ٢ صـ ٧٣٣.

الموقف من الأنصار الذين آمنوا به رجالا ونساء، شبابا وشيوخا، فجمع كلمتهم وألف بينهم ورباهم على الحب في الله والحماية لدين الله وتبليغ دعوته.

ثم تظهر حكمته ﷺ في تلك الأزمة بعدم تأخره في إيجاد حلول سريعة للخروج منها؛ فما أن سمع ﷺ بالخبر حتى ذهب مسرعاً إلى القوم، بعد أن استدعاهم، وأنهى بحكمته هذه الأزمة الطارئه؛ فلو أنه تأخر أو استهان بها وتركها، مع أنه سيكون حينئذ معذوراً فهو النبي القائد الأعلى الذي على عاتقه من المهمات والأعمال الشيء الكثير، فلو أنه تأخر لكان هذا الموقف من الأنصار- رضي الله عنهم - سيحدث خللاً في المجتمع يوماً من الأيام، وتعلق في أفئدة الرجال استفهامات وتقديرات خاطئة تساعدها مواقف أخرى، والشيطان لا يترك مثل هذه الفرص بل يؤججها ويجعلها فتيلاً قابلاً للاشتعال " وتلك سنة حميدة يجب أن يتبعها القادة والزعماء مع أنصارهم ومحبيهم؛ فإن الأعداء متربصون لاستغلال كل حادثة أو قول يضعف تعلق المحبين بقادتهم، والشيطان خبيث الدسّ، سريع المكر؛ فلا يزال القادةُ استرضاءَ أنصارهم مهما وثقوا بهم " [1]

ثانياً: الحلم مع القدرة.

وهذا واضح في سعة صدر النبي ﷺ وتحمّله للنقد الموجّه له (يغفر الله لرسوله ﷺ يعطي قريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم) فلم يرتفع صوته أو يتغير وجهه، ولم يرتب أحكاماً ومواقف على هؤلاء المتكلمين؛ فيتعامل معهم معاملة جديدة وفق هذه المعطيات، فيهجرهم ويقاطع العمل معهم؛ بحجة أنهم لا يحترمون القيادة، ولا يوقرون الكبار، ولا يقدّرون فضائل من ضحّى من أجلهم؛ كلا لم يفعل ﷺ شيئاً من ذلك؛ بل ذهب إليهم، وطرح عليهم أسئلة حكيمة ثم مدحهم، وأثنى عليهم ثناءً ومدحاً فوق مستوى الحدث، لم يكن أحد منهم يتوقع هذا

(١) السيرة النبوية دروس وعبر - مصطفى السباعي صـ ١٤٩، ١٥٠ طـ الثالثة المكتب الإسلامي ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

المدح والثناء؛ فلم يستطيعوا أن يوقفوا تدفق الدموع على خدودهم .

ثالثاً: التركيز على القيم الإسلامية الراسخة في النفوس :

من المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة التركيز على ما في قلوب الأنصار من قيم ومبادئ إسلامية رسخها فيهم ﷺ فلفت انتباههم إلى ما أعده الله للصابرين الذين باعوا الدنيا وما فيها، واشتروا بها جنة عرضها السموات والأرض، وأوضح لهم أن قضيتهم ليست مرتبطة بلُعاعة الدنيا وحقارتها، وإنما مرتبطة باتباع هديه، ونصرة دينه، وإعلاء كلمة الله؛ فليذهب الناس بالشاة والبعير، فليس هذه مشكلة، لكن المشكلة والبلاء أن يذهب المرء ومعه حظوظ الدنيا وهو خالي الوفاض وبلا رصيد في الآخرة، والمشكلة أيضاً أن يكون التلوُّن طريقته والترخُّص عادته، فقال لهم ﷺ: (أَوَجَدْتُمْ عَلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ)

وهنا يأتي دور التركيز على الإيمان واليقين والتسليم في النفوس، ويأتي دور القائد القادر على تحريك مشاعر الإيمان في القلوب بكل ما تحمله من قِيَم ومبادئ ومعان سامية، حتى لا يبقى في القلوب سوى حب الله وحب رسوله ﷺ.

رابعاً: الموعظة وليس الغلظة والفظاظة.

المتأمل لردة فعل النبي ﷺ وبما خاطب الأنصار في الحظيرة يجد أنه استخدم بذكائه العظيم وحسن سياسته للأمور أسلوب الموعظة، لقد عرف ﷺ من هم الأنصار، وما هي نفسياتهم، وفيمَ يفكرون، وكيف يتعاملون؟! عرفهم في البأساء والضراء، عرف فيهم حبهم له ﷺ فلم يعنفهم ولم يكن قاسياً معهم، وإنما سلك مسلك الموعظة الرقيقة.

وما أحوج قادة الإسلام في واقعنا المعاصر- المليء بالأزمات - إلى استخدام هذا

الأسلوب العظيم لاسيما عند اعوجاج سلوك النخبة من الأتباع أو المعارضين!

ماذا يضيرهم لو سلكوا هذا المنحى؟ قد يظن بعضهم أنه ربما ينقص من قدره ومكانته، بل العكس إنما هو رفعة له في قلوبهم، وازدياد معدل المحبة فيها .

لقد عاتب ﷺ أنصار دعوته ومحبيه ليدلل على محبته لهم، واهتمامه بحالهم وأوضاعهم، يعيش آلامهم، ويحس بجراحهم لتبقى المودة على الدوام .

ومن هنا كان لزاماً على من تولى قيادة النفوس أن يتقن فن الوعظ وطرقه؛ لأنه سيحتاج إليه حتماً في مسيرته.

خامساً: التكتم وعدم إشاعة أخبار الأزمات.

جاء في الحديث السابق (قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ؟ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أَتَى سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَك هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)

هذا الجزء يبين دلالة مهمة وهي أنه إذا حدثت أزمة ما داخل المجتمع المسلم بين بعض أفراده فمن الحكمة ضرورة محاصرة خبرها؛ لكيلا ينتشر بين الأتباع الآخرين الذين ليس لهم علاقة بها، ولم يشاركوا فيها؛ إذ إن وصول الخبر إليهم مدعاة لتضييع الأوقات وإهدارها، ويكثر من القيل والقال، وكثرة السؤال، وهذا ولا ريب يعد عاملاً من عوامل تفريق المجتمع.

سادساً: التعميم لا التعيين.

لقد استخدم ﷺ لفظاً عاماً في مخاطبة الحضور، ولم يعين شخصاً بعينه، أو اثنين أو ثلاثة بأسمائهم مع أنه- والله أعلم- كان يعلم بالذين تكلموا؛ فالوحي لم يكن ليترك النبي ﷺ دون أن يخبره بمثل ذلك .

ومعلوم من منهجه وأسلوبه ﷺ في الخطاب عند حدوث الأخطاء من الصحابة استخدامه ﷺ لكلمات عامة: (ما بال أقوام، وما بال رجال)

وفي هذه الأزمة كان خطابه عاماً (يا معشر الأنصار) واستخدام القائد لأسلوب

التعميم عند مواجهة الأزمات وحل المشكلات له فوائد مهمة ونتائج طيبة منها: أن الخطاب سيكون عاماً وليس معيناً ومحدداً، وهذا سيؤدي إلى جعل الحضور كلهم في محل المسؤولية، ومنها: أن أسلوب التعميم وعدم ذكر أسماء الأشخاص يحفظ للمذنب كرامته، ويصون عرضه وشخصيته فلا تجرح.

سابعاً: تطييب النفوس وبيان الفضل.

طيب النبي ﷺ خاطر الأنصار ببيان فضلهم وما لهم من منزلة في قلبه ﷺ وضرب لهم صورة مؤثرة بأنهم " قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله ﷺ يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع ، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار[1].

وكان هذه المنهج له أثره في إنهاء الأزمة فبين لهم ﷺ أنه لم يمنعهم مما أعطاه لغيرهم إلا لمزيد حبه لهم، الذي فوقه فقال لهم كما سبق في الحديث: (وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءاً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَوَادِيًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا وَوَادِيًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ وَوَادِيَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْمًا وَحَظًّا)

ويكفيهم فخراً أنه ﷺ اعتبرهم منه بمثابة شعاره وجعل غيرهم دثاره، والشعار هو ما يلي الجلد من الثياب والدثار قال ابن حجر: "وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه، وأراد أيضاً أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من

(١) المجتمع النبوي في عهد النبوة – د/ أكرم ضياء العمري صـ ٢١٩ طـ الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

غيرهم"[1]

إن ما وقع من الأنصار بعد قسمة غنائم هوازن، وتصرف النبي ﷺ تجاه ما قالوا يعدّ منهجاً في مواجهة الأزمات ينبغي أن يتخذه القادة، والدعاة، والمربون، والموجهون، يسيرون وفق معطياته عندما تعترضهم الأزمات والخلافات في أوساط مجتمعاتهم.

تعقيب:

ظهر مما سبق أن قرارات النبي ﷺ في الأزمات كلها تملؤها الحكمة والذكاء والعلم... لذا كان من واجب كل القادة العاملين للإسلام في وقتنا الحاضر عند مواجهة الأزمات أن يضعوا نصب أعينهم الاقتداء بحكمته ﷺ إذ يقول الله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [2]

وفي سبيل تحقيق ذلك ينبغي اتخاذ مجموعة إجراءات هامة كالتالي:

- تدبر سنته ﷺ والوقوف على مواضع القرارات الهامة التي اتخذها النبي ﷺ وتدبرها بالتحليل والدراسة للخروج بالفوائد.
- اقتفاء أثره ﷺ في قيادته للمجتمع المسلم كله وشمولية قيادته، واستخلاص المبادئ القيادية الهامة التي كان النبي ﷺ يعتمدها في إدارته وقيادته واعتمادها كخطوط أساسية للعمل.
- الوقوف على طريقته ﷺ في علاج المشاكل ومواجهة الأزمات الناشئة في المجتمع المحيط به، واتباع طريقته ﷺ في معاملة المحيطين به خاصة المقربين منهم.
- الوقوف على طريقته ﷺ في تشجيع العاملين والأفراد الجدد لإنجاز الأعمال

(١) فتح الباري – ابن حجر جـ ٨ صـ ٥٢.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

المطلوبة منهم.

- الاستفادة من الوسائل التي اعتمدها النبي ﷺ للوصول إلى الحكمة في قراراته.
- وضع كل ما سبق في مقام وجوب التطبيق إذ الاقتداء به ﷺ فرض إلهي وليس عملاً فيه مجال الاختيار.

أخيراً: ينبغي الاعتراف بأن عالم اليوم هو عالم الأزمات لأسباب تتعلق بالتغييرات الكثيرة التي حدثت في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها... والتي أثرت في حياة الإنسان داخل المجتمع، وهذه الأزمات التي تختلف في طبيعتها وحجمها وعوامل تحريكها تؤدي إلى الصعوبات والمشكلات وإحداث الانهيارات في القيم والمعتقدات ، لذا فإن مواجهة الأزمات والوعي بها يعد أمراً ضرورياً لتفادي المزيد من الخسائر المادية والمعنوية، ولا يكون ذلك إلا باتباع المنهج النبوي المعصوم.

الخاتمة

بعد هذه الإطلالة الموجزة على المنهج النبوي في مواجهة الأزمات الاجتماعية، والذي بينت فيه مفهوم هذا المنهج ودلالته في الواقع المعاصر، يمكن في خاتمة هذا البحث المتواضع أن أوجز أهم نتائجه وهي كما يلي:

أولاً: الأزمات مواقف صعبة وحرجة تواجه المجتمع المسلم وتأخذ طابع العموم، وتقتضي اتخاذ موقف حاسم لتوجيه أفراد المجتمع توجهاً صحيحاً، يسبقه إعداد يجنبهم الوقوع في تبعات هذه الأزمة، وهذا التوجيه لأفراد المجتمع يكون من قائد لحل تلك الأزمة، وهذا القائد يسير في قيادته على منهج واضح من شأنه الخروج بالمجتمع من تلك الأزمات وتجنب تكرار حدوثها فيما بعد.

ثانياً: حدوث الأزمات في المجتمع النبوي قد يكون في بعض الأحيان بسبب العودة لتلك العادات الاجتماعية البغيضة التي كانت سائدة في المجتمع قبل بعثة النبي ﷺ أو بسبب إثارتها من قبل بعض أعداء الإسلام لتأجيجها في المجتمع لزعزعته بعد استقراره في أحيان أخرى.

ثالثاً: كان المجتمع العربي قبل الإسلام تسوده بعض الأخلاق النبيلة، ولعل هذه الأخلاق النبيلة كانت ذات منافع عامة على المجتمع والأمة، كما كانت سبباً في اصطفاء أهلها لحمل الرسالة، وتبليغ الدعوة وقيادة الأمة إلى فلاح الدنيا والآخرة، لهذا اختار الله رسوله ﷺ للرسالة واختار له هذا المجتمع العربي.

رابعاً: كانت القبلية عند العرب هي المحور التي ينظم وجودهم وحركتهم وعلاقاتهم، فكان الاحتماء بالقبيلة وحمايتها أمراً في غاية الأهمية بالنسبة لهم، ولعل هذه الروح القبلية كانت من أقوى الأمور التي كانت سبباً لإثارة الأزمات الاجتماعية بعد الإسلام، فكان لبقايا وآثار غريزة العصبية القبلية السائدة في الجاهلية دور قوي في إثارة الأزمات في العهد النبوي.

خامساً: المجتمع النبوي كان متعدد الطوائف، ولا يربط طوائفه رباط قوي، والمجتمع الذي هذا حاله، وتختلف فيه طوائفه هذا الاختلاف تحاك ضده المؤامرات من خارجه وتكثر الاضطرابات من داخله لتضعف كيانه وتقوض أركانه، وهنا

تظهر عبقرية العلاج لمثل هذه المجتمعات التي لا يستطيع استقصاء مكامن الداء فيها إلا منهج النبي ﷺ.

سادساً: ظلت قضية البناء تحظى بأولوية المنهاج النبوي، فقد لمس النبي ﷺ تمزق العرب في الجاهلية إلى قبائل وعشائر لا يجمعها جامع ، ولا يقارب بينها شيء سوى المادة والمصلحة وشئون الحياة الدنيا، ورأى كيف أن العربي الجاهلي قد فقد الكثير من الفضائل ومن مقوماته كإنسان صالح لتكوين مجتمع كريم، وبناء حياة حضارية وفقد الكثير من مفهوم التراحم والإخاء الإنسانيين اللذين بهما يقوم بناء المجتمعات.

سابعاً: شكلت المؤاخاة صدارة اهتمامات النبيﷺ؛ تحقيقا للترابط والتعاون بين المسلمين، ولم تتم هذه المؤاخاة تحت الضغط والإكراه، وإنما تمت برغبة جامحة، واندفاع قوي يعبر صراحة عن قوة رابطة الأخوة في الله، ولم تكن هذه الخطوة مجرد شعارات ترفع؛ إنما كانت خطوة عملية، أشرف النبي ﷺ على تنفيذها، وقام بتجسيدها على أرض الواقع.

ثامناً: بالأخوة بين المؤمنين- المهاجرين والأنصار- وبموادعة اليهود؛ دعّم النبي ﷺ الجبهة الداخلية وأمّن جانبها فأرسيت قواعد الدولة، وتميزت الشخصية الإسلامية، وبدأت تأخذ مكانها في المجتمع الجديد وأصبح للمسلمين شوكة وقوة؛ كل ذلك بفضل إيمانهم ووحدتهم وتآخيهم.

تاسعاً: مواجهة الأزمات تحتاج إلى قيادة، فالقيادة ظاهرة اجتماعية لا بد منها، فلا تستقيم حياة المجتمع ولا تسير بانتظام دون وجود قيادات في مستوياتها العليا أو الدنيا، فالوجود المشترك لشخصين أو أكثر يخلق نوعاً من الحاجة إلى من ينظم العلاقات القائمة بينهم.

عاشراً: لقد أولى النبي ﷺ اهتماماً كبيراً بتكوين الطليعة الأولى لقيادة هذه الأمة، وقد هيأ الله له من المعرفة والتسديد ما استطاع به أن يغير معالم هذا العالم من خلال تربية متميزة، فمهمة إيجاد القائد هي مهمة تربوية في المقام الأول، فالتربية المتكاملة مع حسن الانتقاء والاختيار لهما الأثر الأكبر في صناعة القيادات ووضع

الأساس واللبنة الأولى لانطلاقها.

حادي عشر: أزمة المسلمين في الواقع المعاصر تنبع من التأثير والتشكيك في عقول الناس، مع أزمة عدم استشعار ثقل القيادة كما استشعرها عظماء الإسلام، وبفقد استشعار ثقل القيادة جاء حب المناصب والزعامات، والتطاحن من أجلها؛ فتقدم غيرُ ذوي الكفاءة على الكفء.

ثاني عشر: نذر أعداء الإسلام أنفسهم لإثارة الأزمات في داخل المجتمع الإسلامي، وكان الدور الأبرز في ذلك لليهود والمنافقين.

ثالث عشر: بناء الشخصية الإسلامية على العقيدة يخرج للبشرية نمطاً فريداً من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البشر في أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم الاجتماعية، وتكون الآصرة الوحيدة في حياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها، وهي وحدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها، وتعطي قوة في مواجهة الأزمات.

رابع عشر: لا غرابة أن تتحرك في أي بلد مسلم أو في المجتمع الإسلامي نوازع الجاهلية ونزاعاتها وتثور بعد كمون طويل، ومن الممكن أن تؤدي إلى حمل السلاح، فمن الواجب على المسلم إن يدرك خطورة الموقف وكيفية علاجه بأسرع وقت ممكن، وأن لا يدب اليأس في المجتمع المسلم ويحبط الأماني عندما نرى مثل هذه الظواهر.

خامس عشر: التصرف القيادي المتمثل في شخص النبي ﷺ في مواجهة الأزمات كان يتصف بالحكمة والدقة والقرارات الحاسمة لأنه ﷺ يواجه الأزمات بمنهجه النبوي المعصوم، ويربي أصحابه الكرام على مواجهة الأزمات التي تعرض للمجتمع بين الفينة والأخرى، فمواجهة الأزمات والوعي بها يعد أمراً ضروريا لتفادي المزيد من الخسائر المادية والمعنوية، ولا يكون ذلك إلا بإتباع المنهج النبوي المعصوم.

قائمة بأهم المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: مراجع متنوعة.

١- اتخاذ القرارات في ظروف الأزمات- خالد بن عبدالله آل سعود طـ ١٤٢٧ ه ٢٠٠٦ م.

٢- إدارة الأزمات- محسن بن أحمد الخضيري ط الثانية مكتبة مدبولي.

٣- إدارة الأزمات التعليمية- أحمد بن إبراهيم طـ دار الفكر العربي ١٤٢٢ ه ٢٠٠٢ م.

٤- الإصابة- ابن حجر ط الأولى دار الجيل - بيروت ١٤١٢ هـ.

٥- الأصمعيات- الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك طـ دار المعارف.

٦- إمتاع الأسماع- المقريزي طـ الأولى دار الكتب العلمية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩.

٧- البداية والنهاية - ابن كثير طـ الأولى دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م

٨- بدائع السلك في طبائع الملك - ابن الأزرق طـ دار الحرية للطباعة والنشر بغداد١٣٩٧ ه ١٩٧٧م.

٩- تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين - د / علي محمد محمد الصَّلاَّبي طـ مكتبة التابعين القاهرة ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م.

١٠- التربية القيادية- منير الغضبان طـ دار الوفاء ١٤١٨ ه ١٩٩٥ م.

١١- تفسير الشعراوي- الشيخ الشعراوي طـ دار أخبار اليوم.

١٢- جمهرة أنساب العرب- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي طـ الثالثة دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ م

١٣- الجامع لأحكام القرآن- القرطبي طـ الثانية دار الكتب المصرية ١٣٨٤هـ-

١٩٦٤ م.
١٤- جوامع السيرة- ابن حزم طـ الأولى دار المعارف مصر ١٩٠٠ م
١٥- دراسة في السيرة- عماد الدين خليل طـ ١٠ مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦ م
١٦- الرحيق المختوم – المباركفوري طـ الثانية دار السلام للنشر والتوزيع ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م
١٧- الرسول القائد- محمود خطاب شيت طـ الخامسة دار الفكر بيروت ١٣٩٤.
١٨- الرسول القائد- عباس العقاد ط الثانية دار مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٠م
١٩- زاد المعاد في هدي خير العباد – ابن القيم جـ ٣ صـ ١٢٦ طـ السابعة والعشرون مكتبة المنار الإسلامية ١٤١٥هـ ١٩٩٤م
٢٠- سنن أبي داود- أبو داود السجستاني- طـ دار الكتاب العربي بيروت.
٢١- سنن الترمذي – الترمذي طـ دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٢٢- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية – ابن تيمية طـ دار المعرفة.
٢٣- السيرة النبوية- محمد بن إسحاق
٢٤- السيرة النبوية- ابن هشام طـ الأولى دار الجيل١٤١١هـ.
٢٥- السيرة النبوية الصحيحة – أكرم ضياء العمري طـ الأولى مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٤١٢هـ١٩٩٢م.
٢٦- السيرة النبوية دروس وعبر – مصطفى السباعي طـ الثالثة المكتب الإسلامي ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
٢٧- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – د / علي محمد محمد الصلابي طـ السابعة دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م.
٢٨- صحيح البخاري – الإمام البخاري طـ الثالثة دار ابن كثير، اليمامة- بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

٢٩- صحيح مسلم – الإمام مسلم طـ دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٠- عبقرية محمد- عباس العقاد طـ المكتبة العصرية.
٣١- العدالة الاجتماعية- سيد قطب طـ دار الشروق.
٣٢- فتح الباري- ابن حجر طـ دار المعرفة بيروت ١٣٧هـ.
٣٣- الفقه الإسلامي وأدلته – د / وهبة الزحيلي طـ الرابعة دار الفكر دمشق.
٣٤- فقه السيرة – محمد الغزالي طـ السابعة دار الكتب الحديثة ١٩٧٦م –
٣٥- فقه السيرة النبوية – منير لغضبان طـ معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.
٣٦- في ظلال القرآن – سيد قطب طـ دار الشروق – القاهرة.
٣٧- القول المبين في سيرة سيد المرسلين- محمد الطيب النجار طـ دار الندوة الجديدة بيروت.
٣٨- لسان العرب – ابن منظور طـ الأولى دار صادر بيروت.
٣٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندو طـ مكتبة نزار الباز مكة المكرمة ١٤١٨ ه ١٩٩٧م.
٤٠- المجتمع النبوي في عهد النبوة – د / أكرم ضياء العمري طـ الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٤١- مجموع الفتاوى- ابن تيمية طـ الثالثة دار الوفاء ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م
٤٢- محمد رسول الله – محمد الصادق عرجون طـ دار القلم.
٤٣- مختار الصحاح- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي طـ مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥- ١٩٩٥.
٤٤- مختصر زاد المعاد- محمد بن عبد الوهاب طـ الأولى المكتب الاسلامي.
٤٥- المدخل الإبداعي لإدارة الأزمات- فهيد بن عايض الشمري طـ ١٤٢٣ ه.
٤٦- مروج الذهب- أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي طـ دار

الأندلس- بيروت ١٩٦٥.
٤٧- المستوطنات اليهودية على عهد الرسول ﷺ- د / أحمد المجدوب طـ الدار المصرية اللبنانية.
٤٨- المسند - الأمام أحمد بن حنبل، ط الأولى المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٨٩هـ.
٤٩- المعجم الوسيط- إبراهيم مصطفى وآخرون طـ دار الدعوة.
٥٠- معجم مقاييس اللغة- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا طـ دار الفكر ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٥١- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- د / جواد علي - طـ ١٩٦٨م.
٥٢- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية- سيد عبد الحميد طـ سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي العدد ٥١ جمادي الآخرة ١٤٠٦هـ.
٥٣- المنهج الحركي للسيرة النبوية - محمد منير الغضبان طـ الأولى دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
٥٤- منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة - الطيب برغوث طـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
٥٥- نظرات في السيرة- الإمام حسن البنا طـ الأولى مكتبة الاعتصام- القاهرة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٥٦- النهاية في غريب والأثر - ابن الأثير طـ المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٥٧- الوافي بالوفيات- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فهرس الموضوعات

مقدمة ١٥٦٩
تمهيد: مفهوم الأزمات ١٥٧٢
المبحث الأول ١٥٧٥
الواقع الاجتماعي للعرب قبل الإسلام..... ١٥٧٥
أولاً: مكانة المسألة الاجتماعية في الحياة الإنسانية..... ١٥٧٥
ثانياً: مظاهر الإيجاب والسلب في الواقع العربي قبل الإسلام. ١٥٧٦
المظاهر الإيجابية في المجتمع العربي قبل الإسلام. ١٥٧٦
المظاهر السلبية في المجتمع العربي قبل الإسلام. ١٥٧٩
المبحث الثاني: ملامح المجتمع في العهد النبوي..... ١٥٨٦
أولاً: طوائف المجتمع في العهد النبوي..... ١٥٨٦
ثانياً: وسائل النبي ﷺ في تنظيم المجتمع. ١٥٨٨
أولاً: إيجاد الأخوة بين الطوائف المتشابهة مكان العصبية..... ١٥٨٨
ثانياً: دستور يضبط العلاقة بين الطوائف المتشابهة والمتنافرة. ١٥٩٧
المبحث الثالث: صناعة الشخصية القيادية لمواجهة الأزمات ١٦٠٢
أولاً: تعريف القيادة. ١٦٠٢
ثانياً: مكانة القيادة في الإسلام. ١٦٠٢
ثالثاً: أهمية القيادة وقت الأزمات. ١٦٠٦
رابعاً: منهج النبي ﷺ في صناعة القادة..... ١٦٠٦
أولاً : مرحلة الانتقاء. ١٦٠٧
ثانيًا: مرحلة الاصطفاء والتربية..... ١٦٠٩
أزمة المسلمين المعاصرة في عدم تفعيل تأهيل القيادات..... ١٦١٧

المبحث الرابع: نماذج للأزمات الاجتماعية في العهد النبوي والمنهج النبوي في مواجهتها ١٦١٩
أولاً: دور اليهود والمنافقين في إثارة الأزمات..... ١٩١٩
ثانياً: أزمات أثارها اليهود. ١٩٢٢
أزمة تفريق وحدة الأنصار بتهييج العداوات القديمة..... ١٩٢٢
المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة..... ١٦٢٤
ثالثاً: أزمات أثارها المنافقون. ١٦٢٦
النموذج الأول: إثارة العصبية الجاهلية بين أفراد المجتمع النبوي. ١٦٢٦
المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة..... ١٦٢٩
النموذج الثاني: الطعن في النبي ﷺ وأهل بيته (حديث الإفك)..... ١٦٣٥
المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة..... ١٦٤٢
مثيرو الأزمات في الواقع المعاصر. ١٦٤٦
رابعاً: أزمات اجتماعية أخرى. ١٦٤٧
أزمة اختصاص المهاجرين بالغنائم دون الأنصار بعد غزوة حنين ١٦٤٧
المنهج النبوي في مواجهة هذه الأزمة. ١٦٤٩
تعقيب. ١٦٥٤
الخاتمة ١٦٥٦
قائمة بأهم المراجع ١٦٥٩
فهرس الموضوعات ١٦٦٤

فهرس قسم الدعوة

الموضوع — الصفحة
١- استغلال الوقف عالي القيمة قليل النفع ١٣٤١-١٣٨٢
٢- الأمن في المملكة العربية السعودية ١٣٨٣-١٤١٢
٣- الإيجابية في حياة الأمة الإسلامية..... ١٤١٣-١٤٧٨
٤- الدعوة إلى الله بالعمل بين النظرية والتطبيق ١٤٧٩-١٥٢٢
٥- الدعوة إلى الله فضلها – أهميتها – وسائلها ١٥٢٣-١٥٦٦
٦- المنهج النبوي في مواجهة الأزمات الاجتماعية..... ١٥٦٧-١٦٦٤

فهرس الجزء الثاني

ثالثًا: قسم العقيدة:

١- قضية الاختلاف فى فروع العقيدة وعلاقتها بالاجتهاد ٨٨٧-٩٥٠
٢- فلسفة المعتزلة الأخلاقية وموقف الفكر الأشعري منها ٩٥١-١٠٣٠
٣- مبدأ (سيادة الشعب) الديمقراطي في ميزان الفكر الإسلامي ١٠٣١-١١٤٦
٤- ملامح التصوف عند الشيخ محمود خطاب السبكي ١١٤٧-١٢٣٢
٥- المجاز والتأويل بين المثبتين والنافين ١٢٣٣-١٣٤٠

رابعًا: قسم الدعوة:

١- استغلال الوقف عالي القيمة قليل النفع ١٣٤١-١٣٨٢
٢- الأمن في المملكة العربية السعودية ١٣٨٣-١٤١٢
٣- الإيجابية في حياة الأمة الإسلامية ١٤١٣-١٤٧٨
٤- الدعوة إلى الله بالعمل بين النظرية والتطبيق ١٤٧٩-١٥٢٢
٥- الدعوة إلى الله فضلها – أهميتها – وسائلها ١٥٢٣-١٥٦٦
٦- المنهج النبوي في مواجهة الأزمات الاجتماعية ١٥٦٧-١٦٦٤

* * *